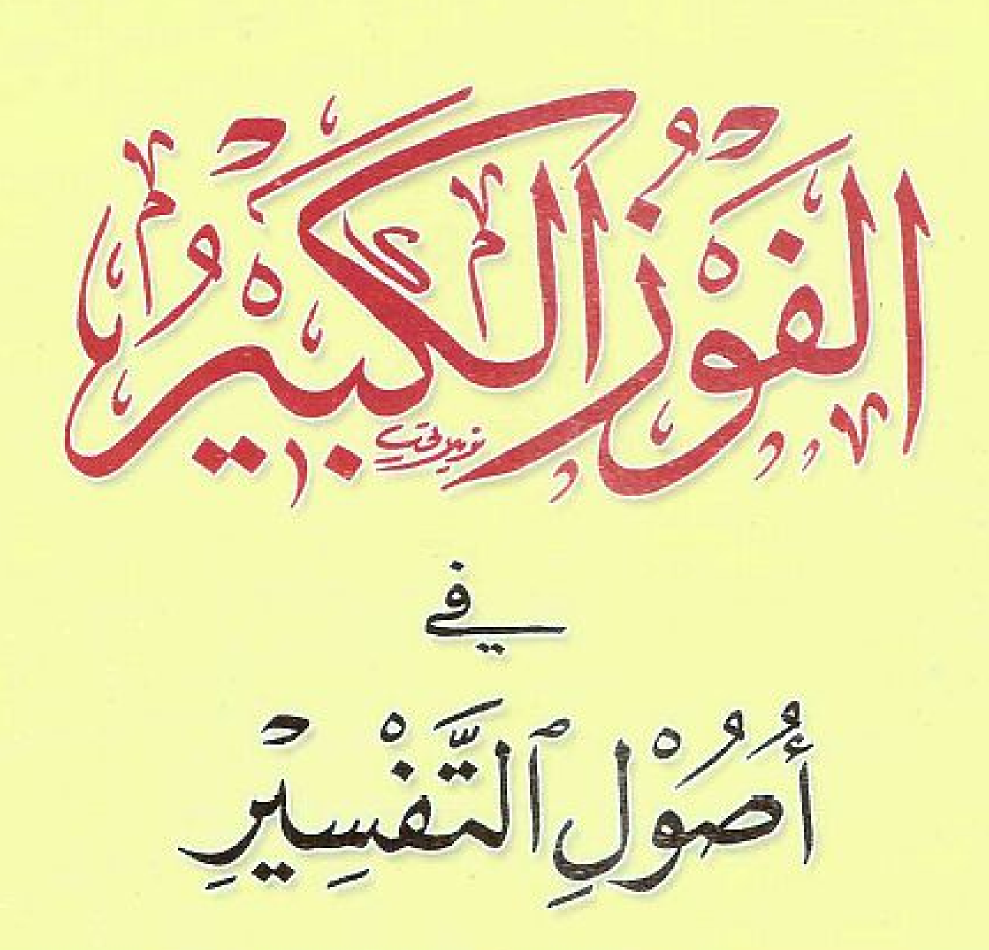




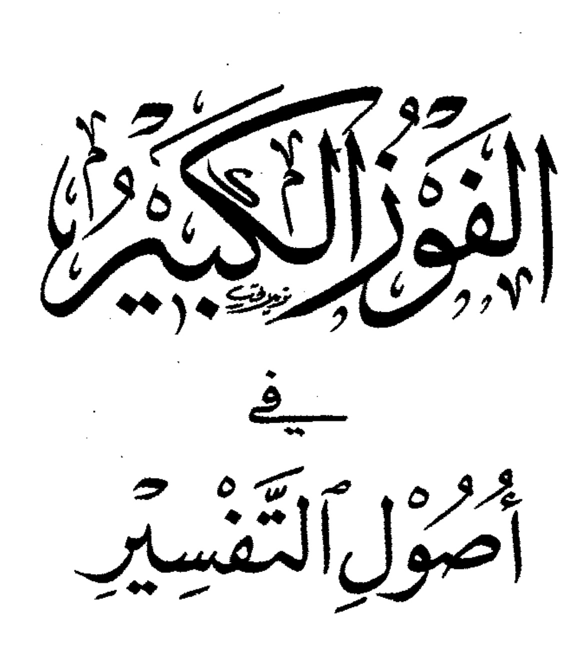
للإمام المجدد ، المحدث الفقيه

أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهلوي

(١١١٤ - ١١٧٦ هـ)

دار الغوثاني للدراسات القرآنية

دمشق - سورية


الفوز الكبير
في
أصول التفسير

الموضـــوع : دراسات قرآنية
العنـــوان : الفوز الكبير في أصول التفسير
تأليـــف : أحمد بن عبد الرحيم

عدد الصفحـات : ١٥٨
قياس الصفحـات : ١٧ × ٢٤
الرقم التسلسلي : ٧٢
التنضيد الضوئي : مركز الحجازي - حلب
التنفيذ الطباعي : مطبعة الغوثاني

الوكـــلاء

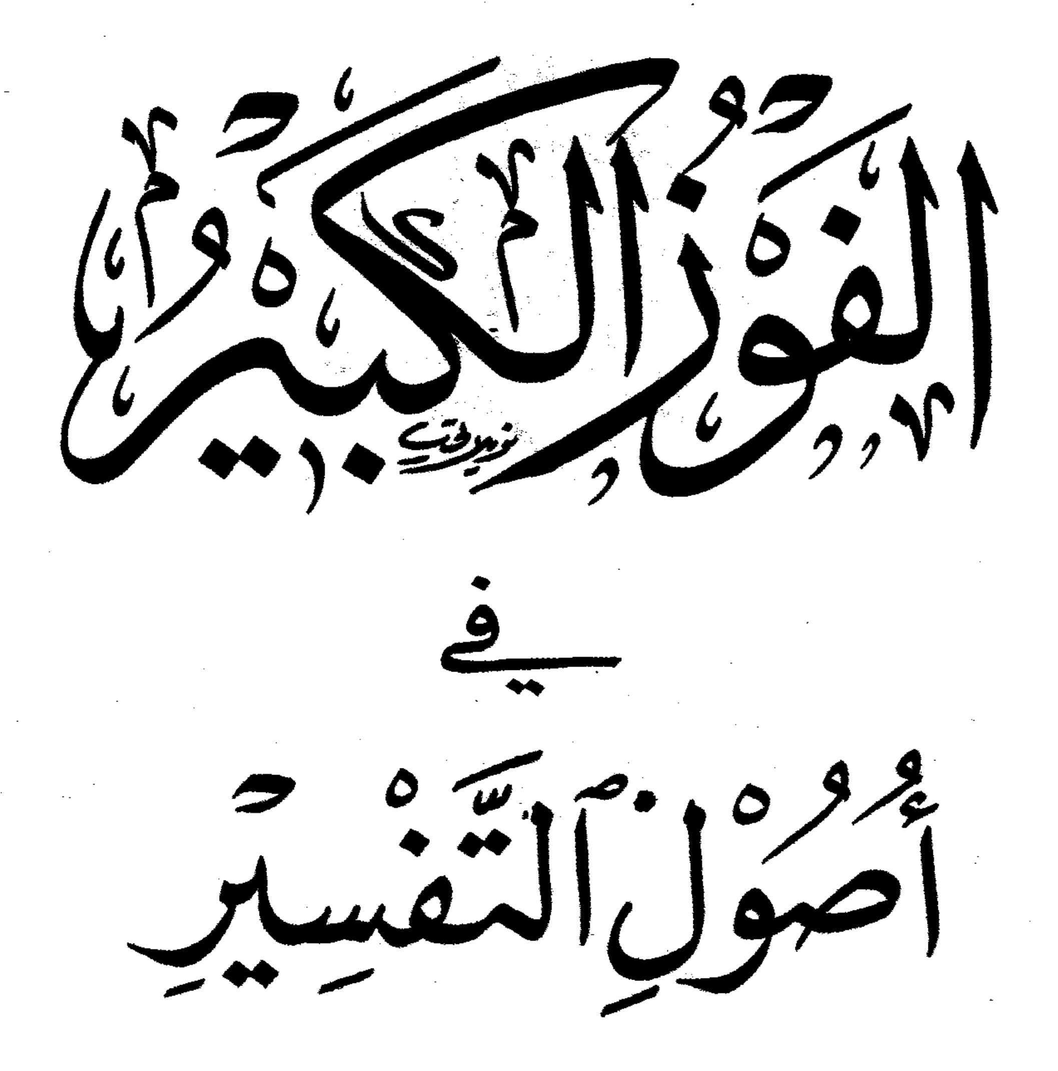
سورية - حلب - دار نور الهداية - هاتف : ٠٠٩٦٣٢١٣٢٣٧٣٠٠
الأردن - عمان - دار الفاروق - هاتف : ٠٠٩٦٢ ٦٤٦٤٠٠٦٤
لبنان - بيروت - دار البشائر الإسلامية - هاتف : ٠٠٩٦١١٧٠٢٨٥٧
الإمارات - دبي - مكتبة البيروني - هاتف : ٠٠٩٧١٥٠٦٥١٧٠٩٧
السعودية - الرياض - أيمن عوض - هاتف : ٠٠٩٦٦٥٦٩٨٠١٩٩٤
مصر - القاهرة - دار السلام - هاتف : ٠٠٢٠٢ ٢٧٤١٥٧٨
الجزائر - العاصمة - دار الوعي - هاتف : ٠٠٢١٣٥٤٥١٠١٤
الكويت - العاصمة - بيت المقدس - هاتف : ٠٠٩٦٥ ٢٦١٠٢٧٠



دار الغوثاني للدراسات القرآنية

دمشق : حلبوني - ص ب: ٢٥٢٣٧ - فاكس: ٢٤٥٤٠١٣
هاتف: ٢٤٥٣٦٣٨ (٩٦٣١١+) - جوال: ٠٩٤٤ ٤٥٣٦٣٨
البريد الالكتروني: algawthani@scs-net.org
algawthani@hotmail.com

الطبعة الأولى
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م



للإمام المجدِّد، المحدِّث الفقيه

أحمد بن عبد الرّحيم المعروف بولِيّ الله الدّهلوي

(١١١٤ - ١١٧٦ هـ)



﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ﴾

[البروج: ١١]

تقـريـظ

بقلم الداعية الكبير المفكِّر الإسلامي العظيم

العــلاّمــة أبي الحســن علي الحســني النَّــدْوي[1]

رحمه الله تعالى

إن كتـاب الإمـام الـدِّهْلَوي **(الفـوز الكـبير في أصـول التفسـير)** مـأثرةٌ تجديديةٌ ثورية في صـدد الـدعوة إلى القـرآن، وإنشـاء مَلكـة الفهـم والتـدبُّر للقرآن الكريم في أوساط الخاصة وأصحاب العلم والمُثقَّفين، وإيقاظ عاطفـة الإصلاح للأمة الإسلامية، وإنه لكتاب فريدٌ (في المكتبـة الإسـلامية العـامرة حسب علمنا) في بابه.

لا يُوجَد في أصول التفسير شيء مستقلّ ـ بصفة عامة ـ وما هي إلا بعـض القواعد والضّـوابط وشـيءٌ مـن الأصـول يـذكرها بعـض المفسـرين في مقدمـة تفاسيرهـم، أو لبيان منهجهم في التفسير والتأويل في بضعة سطور.

وإنْ كان كتاب الإمام الدِّهلوي **(الفـوز الكـبير في أصـول التفسـير)** أيضـاً وجيزاً مختصراً، ولكنه كلَّه نقاط أساسية وكليات جامعـةٌ، وهـو ـ في الحقيقـة ـ مذكِّرة نادرة قيِّمة لعالمٍ جليل عانى مشكلات القرآن، ومارسها ممارسة المجرِّب الخبير، ولا يقدره حقّ قدره إلا من واجه هذه المشكلات والمسائل العويصة.

وإنّ بعض الأصول والكليات التي سجّلها الإمـام الـدِّهلوي بنـاء علـى ذوقه ووجدانه وإدراكه لِمَغـزى القـرآن، لا يمكـن الحصـول عليهـا بمطالعـة مئات الصفحات في الكتب الأخرى، وإنَّ تصريح الإمام الدِّهلوي في مقدمـة هذا الكتاب بما يلي، صحيحٌ مئةً في المئة:

---

(١) مأخوذ من «رجـال الفكـر والـدّعوة في الإسـلام» للعلامـة أبي الحسـن النـدوي، (٤/٥٢١-٥٢٤) طبع دار ابن كثير بدمشق، عام ١٤٢٥-٢٠٠٤م.

(يقول الفقير إلى الله، ولي الله بن عبد الرحيم ـ عاملهما الله تعالى بلطفه العظيم ـ: إنَّه لَمّا فتح الله عليّ باباً من كتابه الحكيم، خطر لي أن أقيد الفوائد النافعة التي تنفع إخواني في تدبّر كلام الله عزّ وجّل، وأرجو أنّ مجرد فهم هذه القواعد يفتح للطلاّب طريقاً واسعاً إلى فهم معاني كتاب الله تعالى، وأنهم لو قضَوْا أعمارهم في مطالعة كتب التفسير أو قراءتها على المفسرين ـ على أنهم أقَلُّ قليل في هذا الزمان ـ لا يظفرون بهذه القواعد الضابطة والمضامين المترابطة)[1].

إنَّ ما كتبه الإمام الدِّهلوي في مقاصد القرآن الكريم وموضوعاته وخصائص أسلوبه ومنهجه، واختلافه وتميّزه عن المؤلّفات البشرية، لا سيّما كتب المتأخرين الدّراسيّة، وأسبابِ النزول في كلماتٍ قليلةٍ معدودة، يمكن ألاّ يُشعر فيه ـ اليوم ـ بالجِدَّة والابتكار، ولكنها كانت في القرن الثاني عشر آراءً ونظراتٍ جديدةً، ولا تزال هذه الآراء غريبةً مجهولة في كثير من الأوساط.

لقد وقع هناك نقصٌ كبير وفرقٌ هائل ـ نتيجة كثرة الرّوايات المتعلِّقة بأسباب النزول والتأكيد على أهميّتها والتركيز عليها؛ الذي كان أصبح شعار القرون المتأخّرة ـ في الاستفادة من مضامين القرآن العظيم وقصصه والانتفاع بعظاته وعبره في كل عصر ودورٍ من أدوار التاريخ، وتطبيقها على ظروف العصر وأوضاعه وقضاياه.

فقد أزاح الإمام الدِّهلوي بهذا التحقيق والتنقيح ذلك السِّتار الكثيف، وكشَف عن جمال القرآن الكريم وبهائه ورونقه.

يقول الإمام الدِّهلوي في الباب الأول من كتابه (الفوز الكبير): (وقد ربط عامة المفسِّرين كلَّ آية من آيات الأحكام وآيات المخاصمة بقِصّةٍ تروى في سبب نزوله، وظنّوا أنّها هي سبب النزول.

---

(١) الفوز الكبير ١٥ـ ١٦.

والحقّ أنّ نزول القرآن الكريم، إنما كان لتهذيب النفوس البشريّة، وإزالةِ العقائد الباطلة والأعمال الفاسدة.

فالسبب الحقيقيُّ ـ إذاً ـ في نزول آيات المخاصمة هو وجود العقائد الباطلة في نفوس المخاطبين.

وسبب نزول آيات الأحكام، إنما هو شيوع المظالم، ووجود الأعمال الفاسدة فيهم.

وسبب نزول آيات التذكير(بآلاء الله وأيامه وبالموت) إنّما هو عدم تيقُّظهم وتنبُّههم بما يرون ويمرّون عليه من آلاء الله وأيامه وحوادث الموت، وما سيكون بعده من وقائع هائلة.

أمّا الأسباب الخاصة والقصصُ الجزئيةُ التي تجشَّم بيانها المفسرون، فليس لها دَخل في ذلك، إلاّ في بعض الآيات الكريمة التي تشتمل على تعريض بحادثٍ من الحوادث في عهد النبيِّ ﷺ أو قبله، بحيث يقع القارئ بعد هذا التعريض في ترقُّبٍ وانتظار لِمَا كان وراءه من قصةٍ أو حادثٍ أو سبب، ولا يزول ترقبه إلاّ ببسط القصة وبيان سبب النزول)[١].

وإنَّ بيان مواضع الضعف في الفِرَق التي تكفل القرآن الكريم بالرَّدِّ عليها والتصريح بعقائدها وأفكارها وآرائها الصحيحة الأصيلة، وأسباب ضلالها وانحرافها وسوء فهمها للحقيقة، وتاريخ هذه الأسباب، وبيان اتفاق وتطبيق هذه الأمور على بعض طبقات المسلمين، هو الأساس الأوّل لفهم القرآن الكريم الذي لا يوجد ـ رغم الاختصار والإيجاز ـ بهذا الوضوح في أيٍّ من التفاسير الكبيرة، كما يوجد في هذا الكتاب.

وكذلك شرح الفَرْقِ بين اصطلاحات المتقدّمين والمتأخرين في النّسخ

---

(١) الفوز الكبير: الباب الأول، ص:١٨ـ ١٩.

والتطبيق والتوفيق بين الآيات الناسخة والمنسوخة، وحلُّ الخلافات التفسيريّة بين الصحابة والتابعين، من بحوث الإمام الدِّهلوي الجيّدة النادرة.

وإنّ ما ذكره الإمام الدِّهلوي من توجيهٍ لعَدَمِ مطابقة بعض الآيات القرآنية مع قواعد النحو الظاهرة المعروفة وعدم موافقتها لها، يَعرِف قدْرَه وأهمّيته من درس تاريخ تدوين النحو، وكان له اطّلاع واسعٌ على الخلافات النحويّة بين مدرستي الكوفة والبصرة.

وإنّ من أكبرَ مِيزَات هذا الكتاب: أنَّ القارئ يطَّلع من خلاله على مواطن الضعف الحقيقية في الديانات السابقة والفِرَق الضَّالة والشعوب والملل وأمراضها القديمة وعِللها الموروثةِ، ويوفق أجيال المسلمين، والمجتمع المسلم في كلِّ عصر وطبقات الأمة المختلفة أن ترى وجهها في مرآة القرآن الكريم، وتحاسب نفسها، وتفكِّر في ألاّ تَتَسَرَّب أمراضُ الديانات والفِرَقِ القديمة ومواطن ضعفها المتوارثةُ إليهم، ولا تدخل بخطىً صامتة عليهم.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠].

أبو الحسن عليّ الحسنيّ النَّدْوِي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحاجة إلى تهذيب التعريب

الحمد لله حمد الشاكرين، والصّلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، **أما بعد**:

«**الفوز الكبير في أصول التفسير**»: صنّفه الإمام ولي الله الدِّهلوي رحمه الله لِطلبة العلوم الإسلامية باللّغة الفارسية، والتي كانت محلية حينذاك، وكان الكتاب موجزاً مختصراً، فكان يدرَّس بدَوره طول حياته؛ ثم بعده رحمه الله لا يزال يدرّس في المدارس الإسلامية، لأن الكتاب رغم صغر حجمه أجدى من تفاريق العصا، وأنفع من الغيث في أوانه.

وقد مضى على تصنيفه زمن طويل، والطلاب يقرؤونه برغبة تامة واهتمام بالغ في أرجاء الهند؛ لأنّ اللغة الفارسية كانت رائجة في الهند، فلمّا انقضى عصرها بالهند أحسّ أحد علماء الهند بحاجة البلاد، فترجمه إلى اللغة العربية، وأخفى اسمه، ونسب تلك الترجمة إلى الشيخ محمد منير الدِّمَشْقي ـ صاحب المطبعة المنيرية الشهيرة بدمشق ـ ولكن كان في الترجمة هُجْنَةٌ وسَقْط وغموض وتسامح في مواضع عديدة، وكانت الحاجة ماسَّة إلى تهذيب الترجمة.

وقبل ربع قرن خدمتُ الكتاب بشرحي «**العون الكبير**» فأحسست حينذاك بالخلل، وشعرت بحاجة إلى مقابلة الترجمة بالأصل الفارسي، فقمت بهذا الواجب حيثما وجدت الغموض في التعبير، أو الخلل في العبارة،

أو التسامحِ في أداء الغرض، ونبَّهت عليه في الشرح، ووضعت الترجمة الصحيحة في الشرح ولم أغير أصل الكتاب.

ولا يزال «**العون الكبير**» يطبع من سبائك حديدية، حتى ذهب رواؤها وبهاؤها، فأردت طبع الكتاب بالكومبيوتر، فنظرت في الكتاب مرّة أخرى فلم يعجبني الأسلوب، ووقفت في أثناء ذلك على أخطاء كثيرةٍ جديدة، فمسَت الحاجة إلى المراجعة مرّة أخرى.

وكذلك القائمون بتدريس الكتاب في دار العلوم دِيُوبَنْدَ، وكذا في الدّور الأخرى في البلاد، أصرُّوا عليَّ مرّات وكرّات أن أقوم بتهذيب التعريب وتوضيحه، فقمت بواجبي ـ بتوفيق المليك الوهّاب ـ نحو الكتاب، وأفرغت الجهد في تحرير الترجمة، وجعلت الترجمة القديمة أصلاً، وغيّرت العبارة في مواضع الضرورة، وعلّقت في مواضع الحاجة بالاختصار، فمن يريد التفصيل فليرجع إلى شرحي «العون الكبير»، وكذا رقمت الكتاب وعنونته من جديد، والحمد لله!

وأخيراً أعتذر إلى الأساتذة البارعين الشارحين للكتاب باللغة الأردوية، وألتمس منهم أن يغيّروا شروحهم طِبْقَ هذه الترجمة المهذّبة، وكذا إلى قرّاء العربية مِن خلط الأردو بالعربي في بعض التعليقات؛ لأنّ ذلك لتزويد الناشئين.

تقبّل الله مساعينا لصالح دينه القويم، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه

سعيد أحمد البالَنْفُوري

١٧/٣/١٤١٨هجري

نُبْذَةٌ

من ترجمة الإمام المصنف

هو أبو عبد العزيز قُطب الدين ولي الله أحمد بن عبد الرحيم الفاروقي الدِّهلوي، الهندي، ولِد في عهد عَالَمْكِير سنة١١١٤هجري، وتوفّي إلى رحمة الله في المحرم سنة١١٧٦هجري بمدينة دِهْلِي.

كان رحمه الله من عباقرة الهند، وممن يشار إليهم بالبَنان:

العالم الفاضل النِّحرير أفضل من بثَّ العلوم فأروى كلَّ ظمآن

أحْيا الله به وبأولاده وبتلاميذه، ثُمّ بتلاميذهم، الحديث والسنّة بالهند، وعلى كتبه وأسانيده المدارُ في الديار الهندية؛ فمَثَله كمثل شجرة طوبى، أصلها في بيته وفرعها في كلّ بيتٍ من بيوت المسلمين.

وقد صنّف الإمام ولِيّ الله في العلوم كلّها، لا سيَّما في الحديث والتفسير وأصولهما، وتصانيفه تشهد بعلوِّ كعبه وتبحُّره وغزارة علمه وسعة نظره في العلوم الشرعية عن آخرها، ولنذكر هنا بعضها:

١ـ ترجَم الفرقان الحميد إلى اللغة الفارسية على شاكلة النظم العربي في قدر الكلام، وخصوص اللفظ وعمومه، أسماها «بفتح الرحمن».

٢ـ الفوز الكبير في أصول التفسير: بالفارسية وهذا الكتاب تعريبه.

٣ـ المُسَوَّى شرح الموطَّا (بالعربية).

٤ـ المصفَّى شرح الموطَّا (بالفارسية).

٥ـ الإرشاد إلى مهمَّات علم الإسناد.

٦ـ حجَّة الله البالغة في أصول الدين وعلم أسرار الشريعة، وهو كتاب فريد في بابه، لم يسبقه مثله، ولم يُنْسَجْ على منواله بعده.

٧ـ عقْدُ الجِيْد في أحكام الاجتهاد والتقليد.

٨ ـ الإنصاف في بيان سبب الاختلاف.

٩ـ المقدمة السَّنِيَّة في انتصار الفرقة السُّنِّيَّة.

١٠ـ إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء:وهو كتاب ماتع عديم النظير في بابه.

١١ـ قُرَّة العينين في تفضيل الشيخين.

١٢ـ التفهيمات الإلٰهية.

وغير ذلك من الكتب المفيدة التي بلغ عددها خمسين كتاباً.

وكان رحمه الله على مذهب الإمام أبي حنيفة رحمه الله، لا يخرج في العمل عنه قيدَ شِبرٍ، وأما في الدرس والتصنيف فكان طلقاً حرَّ البحث، كما كتب هو بنفسه في آخر نسخة صحيح البخاري، المحفوظة بمكتبة خُدَابَخْش بعظيم آباد، ونصّه: «كتبه بيده الفقير إلى رحمة الله الكريم الودود، ولي الله أحمد بن عبد الرحيم بن وجيه الدين بن معظم بن منصور بن أحمد بن محمود عفا الله عنه وعنهم، وألحقه وإيَّاهم بأسلافهم الصالحين، العُمَري نسباً، الدِّهلوي وطناً، الأشعريُّ عقيدةً، الصوفِيُّ طريقةً، الحنفيُّ عملاً، والحنفيُّ الشافعيُّ تدريساً، خادم التفسير والحديث والفقه والعربية والكلام، وله في كلِّ ذلك تصانيف، والحمد لله أوّلاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، ذي الجلال والإكرام. وكان ذلك يوم الثلاثاء لثالث وعشرين من شوّال سنة ١١٥٩ هجري».

وكذا لكونه حنفيّاً قرائن عديدةٌ مصرّحة ومستنبطة من كتبه، ليس هذا محلَّ بيانها(١).

** ** **

(١) اقرأ للاطلاع على حياته: الجزء الرابع من «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» للإمام أبي الحسن علي الحسني الندْوي، طبع دار ابن كثير بدمشق.

علم التفسير

التفسير لغةً: الإيضاح والتبيين.

واصطلاحاً: علم يُبحث فيه عن القرآن المجيد، من حيث دلالته على مراد الله تعالى، بقدر الطاقة البشرية.

فخرج علم القراءات، فإنّه علم يُبحث فيه عن أحوال القرآن الكريم، من حيث ضبْطُ ألفاظه، وكيفية أدائها؛ وقولُنا: «بقدر الطاقة البشريّة» لبيان أنّه لا يقْدَحُ في العلم بالتفسير عدم العلم بمعاني المتشابهات، ولا عدم العلم بمراد الله تعالى في الواقع ونفس الأمر.

وموضوعه: كلام الله تعالى من حيث دلالته على مراد الله تعالى.

وغرضه: الاهتداء بهداية الله تعالى، والتمسّك بالعُرْوَةِ الوثْقَى، والوصول إلى السعادة الأبدية.

وفضائله: كثيرةٌ، منها:

١ـ تكفَّل الله تعالى بنفسه ببيان كلامه الشريف، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾[القيامة:١٩] فالله تعالى هو المفسِّر الأول لكلامه القديم، وكفى به فضيلةً!

٢ـ جُعِلَ تفسير القرآن الكريم وظيفة النبيِّ الكريم ﷺ، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤] فبيّنه ﷺ بقوله وفعله، فهو المفسِّر الثاني لكتاب الله المثاني؛ وكفى به قُدوةً!

٣ـ دعا النبيّ ﷺ لابن عمِّه عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما، فقال: «اللهمّ علِّمه الكتاب»[1]، وفي روايةٍ: «اللهمَّ علِّمه التأويلَ»[2]. وشَهِد بلبَاقَتِهِ

(١) أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب ما ذكر في ذهاب موسى...برقم:٧٥.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/٦١٧) برقم: ٦٢٨٧.

وعبْقَرِيَّته عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حيث قال: (نعم ترجمانُ القرآن ابن عبَّاس)[1] فهل فوق ذلك من فخر؟!

٤ ـ وجُعِلَ خير النَّاس من تعلَّم القرآن وعلَّمه الناس، وهذا عامٌّ لألفاظ القرآن ومعانيه، بل هو أولى، وناهيك به من علياء!

التفسير والتأويل: هما بمعنى واحد عند المتقدِّمين، وأمَّا عند المتأخِّرين، فقال الإمام أبو منصور الماتريدي: التفسير: القطع بأنَّ المراد من اللفظِ هـذا، والشهادة على الله أنَّه عنى باللفظ هذا؛ فإن قام دليل مقطوع به فصحيح، وإلا فتفسير بالرأي، وهو المنهيّ عنه.

والتأويل: ترجيح أحد المحتملات بدون القطع والشهادة على الله[2].

والتفسير بالرأي: هو التفسير بالهوى، والتفسير من عند نفسه، بحيث يُوجب تغييراً لمسألة إجماعية قطعية، أو تبديلاً في عقيدة السلف المُجمَع عليها؛ وأمّا التفسير بالدليل والقرينة فهو تفسير صحيح معتبرٌ في الشرع. ومن يطالع كتب التفسير يجدها مشحونةً بمثل هذه التفاسير، فلا ضيرَ فيها.

** ** **

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/٦١٨) برقم: ٦٢٩١.

(٢) راجع «الإتقان في علوم القرآن» النوع: ٧٧.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

آلاء[١] الله تعالى على هذا العبد الضعيف لا تعدُّ ولا تحصى؛ وأجلُّها: التوفيق لفهم القرآن العظيم. ومِنَنُ[٢] صاحب النبوَّة والرسالة ـ عليه الصلاة والسلام ـ على أحقر الأمَّة كثيرة؛ وأعظمها: تبليغه ﷺ الفرقان الكريم. لقن[٣] النبيُّ ﷺ القرآن الجيل الأول[٤]، وهم أبلغوه للجيل الثاني[٥] وهلمَّ جرًّا[٦]، حتى بلغ هذا الضعيف أيضاً حظٌّ من روايته ودرايته.

اللهمَّ صلِّ على هذا النبيِّ الكريم: سيدنا ومولانا وشفيعنا، أفضل صلواتك، وأيمن بركاتك وعلى آله وأصحابه، وعلماء أمّته أجمعين، برحمتك يا أرحم الراحمين.

أمّا بعد: فيقول الفقير ولِيُّ الله بن عبد الرحيم ـ عاملهما الله تعالى بلطفه العظيم ـ: لَمَّا فتح الله تعالى عليَّ باباً من فهم كتابه المجيد، خطر ببالي أن أجمع وأقيِّد بعض النُّكات[٧] النافعة التي تنفع الأصحاب في رسالةٍ مختصرةٍ. والمرجوُّ من لطف الله ـ الذي لا انتهاء له ـ أن يفتح لطلبة العلم ـ بمجرد فهم

---

(١) جمع الإلى، والإلى، والألى: النعمة.

(٢) جمع المنّة: الإحسان.

(٣) لقّنه الكلام: فهّمه إيّاه مشافهة.

(٤) الجيل الأول: هم أصحاب النّبي ﷺ.

(٥) الجيل الثاني: هم جماعة التابعين.

(٦) هلمّ جرًّا: تعبير يقال لاستدامة الأمر واتّصاله.

(٧) جمع النّكتة، وهي المسألة العلميّة اللّطيفة، الّتي أخرجت بدقّة نظر، وإمعان فكر؛ والمراد بها هنا: الفوائد النافعة.

هذه القواعد ـ شارعاً واسعاً في فهم معاني كتاب الله، بحيث لو صرفوا عُمُرَهم في مطالعة التفاسير، والقراءة على المفسِّرين ـ على أنَّهم أقلٌّ قليلٍ في هذا الزمان ـ لم تتحصّل لهم هذه الفوائد بهذا الضّبط والربط.

وسمَّيتها (**بالفوز الكبير في أصول التفسير**) وما توفيقي إلاّ بالله، عليه توكّلت، وهو حسبي، ونعم الوكيل.

ومقاصد هذه الرسالة منحصرة في خمسة أبواب:

الباب الأول: في بيان العلوم الخمسة، التي يدل عليها القرآن العظيم نصّاً، وكأنّ نزول القرآن بالأصالة كان لهذا الغرض.

الباب الثاني: في بيان وجوه الخَفاء في معاني نظم القرآن، بالنسبة إلى أهل هذا العصر، وإزالة ذلك الخفاء بأوضح بيان.

الباب الثالث: في بيان لطائف نظم القرآن، وشرح أسلوبه البديع، بقدر الطاقة والإمكان.

الباب الرابع: في بيان مناهج التفسير، وتوضيح الاختلاف الواقع في تفاسير الصحابة والتابعين.

الباب الخامس: في ذِكْرِ جملةٍ صالحةٍ[١] من شرح غريب القرآن، وأسباب النزول التي يجب حفظها على المفسّر، ويمتنع ويحرم الخوض في كتاب الله بدونها[٢].

** ** **

(١) أي مقدار كافٍ.

(٢) أسقط الناشرون «للفوز الكبير» الباب الخامس منه؛ لعدم شموله في الدرس.

الباب الأول

في بيان العلوم الخمسة

التي يدلّ عليها القرآن العظيم نصًّا

لِيُعلمْ أنَّ معانِيَ القرآن المنصوصة لا تخرج عن خمسة علوم :

١ـ علم الأحكام: وهي: الواجب، والمندوب، والمباح، والمكروه، والحرام؛ سواء كانت من قسم العبادات، أو من قسم المعاملات[١]، أو من تدبير المنزل[٢]، أو من السياسة المدنيّة[٣]. وتفصيل هذا العلم منوط[٤] بذمّة الفقيه.

٢ـ علم الجَدل: وهو المحاجَّة مع الفِرَق الأربع الضّالة: من اليهود، والنصارى، والمشركين، والمنافقين. وتبيان هذا العلم منوط بذمّة المتكلّم.

٣ـ علم التذكير[٥] بآلاء الله: وهو بيان خَلْقِ السماوات والأرض، وإلهام العباد ما يحتاجون إليه، وبيان صفات الله الكاملة.

٤ ـ علم التذكير بأيّام الله[٦]: وهو بيان الوقائع التي أحدثها الله سبحانه وتعالى، من قبيل تنعيم المطيعين، وتعذيب المجرمين.

---

(١) المعاملات: مسائل باحثة عن كيفية إقامة المعادلات، والمعاونات، والاكتسابات فيما بين النّاس.

(٢) علم تدبير المنزل: حكمة باحثة عن كيفية حفظ الربط الواقع بين أهل المنزل.

(٣) علم سياسة المدينة: حكمة باحثة عن كيفية حفظ الربط الواقع بين أهل المدينة، والمراد من المدينة: جماعة متقاربة تجري بينهم المعاملات، ويكونون أهل منازل شتّى.

(٤) المنوط: المعلّق؛ يقال: هذا منوط به، أي معلّق به.

(٥) ذكَّره الشيء وبالشيء: جعله يذكره، وذكّر القوم: وعظهم.

(٦) أيام الله: نعمه ونقمه، كقصص الأنبياء وأقوامهم، وأيام العرب: حروبهم وملاحمهم، كيوم ذي قار، ويوم الفجار.

٥ ـ علم التذكير بالموت وما بعده: من الحشر والنشر والحساب والميزان والجنّة والنّار.

وتفصيل هذه العلوم الثلاثة، وذكرُ الأحاديث والآثار المتعلِّقة بها يرجع إلى الواعظ والمذكِّر.

أسلوب القرآن الكريم في عرض العلوم الخمسة:

وإنّما وقع بيان هذه العلوم على أسلوب العرب الأوّلين، لا على منهاج العلماء المتأخرين، فلم يلتزم سبحانه وتعالى في آيات الأحكام اختصاراً يختاره أهل المتون، ولا تنقيح القواعد من قيود غير ضرورية، كما هو صناعة الأصوليين؛ واختار سبحانه وتعالى في آيات المخاصمة إلزام الخصم بالمشهورات المسلّمة[١]، والخطابيات النافعة[٢]، لا تنقيح البراهين[٣] على طريقة المنطقيين. ولم يُراع سبحانه وتعالى المناسبة في الانتقال من موضوع إلى موضوع، كما يراعيها الأدباء المتأخِّرون؛ بل نشر كلّ ما أهمّ[٤] إلقاؤه على العباد، سواء كان مقدَّماً أو مؤخراً.

لا تحتاج كلُّ آيةٍ إلى سبب نزول:

وقد ربط عامة المفسّرين كلَّ آية من آيات الجدل والأحكام بقصّة، ويظنّون أنَّ تلك القصة هي سبب نزولها.

---

(١) أي المسلّمة عند عوامّهم وخواصّهم.

(٢) الخطابة: قياس مؤلف من المظنونات أو المقبولات، والخطابة بفتح الخاء مصدر.

(٣) البرهان: قياسٌ مؤلّف من اليقينيّات سواء كانت بديهيّات أو نظريّات، منتهية إلى البديهيّات.

(٤) أهمّ الأمر فلاناً: أثار اهتمامه.

والحق: أنَّ القصد الأصليَّ من نزول القرآن هو تهذيب النفوس البشريّة، ودمغ العقائد الباطلة، ونفي الأعمال الفاسدة، فوجود العقائد الباطلة في خواطر المكلَّفين سبب لنزول آيات الجدل؛ ووجود الأعمال الفاسدة، وشيوع المظالم فيما بينهم سببٌ لنزول آيات الأحكام؛ وعدم تيقُّظهم وتنبُّههم بغير ذكر آلاء الله، وأيَّام الله، ووقائع الموت وما بعده، سببٌ لنزول آيات التذكير.

وأمَّا الأسباب الخاصّة والقصص الجزئيّة التي تجَشَّم المفسّرون بيانها فليس لها مدخل في ذلك، يُعتدُّ به، إلاّ في بعض الآيات الكريمة، حيث وقعت الإشارة فيها إلى حادثة من الحوادث التي وقعت في عهد النبيّ ﷺ، أو قبله؛ ولا يزول ما يعرض للسّامع من الترقُّب والانتظار، عند سماع ذلك التعريض إلاّ ببسط القصة؛ فلزم أن نشرح هذه العلوم بوجهٍ لا نحتاج معه إلى إيراد القصص الجزئية [1].

* * *

(١) ذكر الإمام المصنّف في الفصل الأوّل علم الجدل مع الفرق الأربع الضّالة، وفي الفصل الثاني بقية العلوم الخمسة، فبدأ بعلوم التذكير الثلاثة، ثمّ ثنّى بمباحث الأحكام؛ ففي الكلام لفّ ونشر مشوّش، فتنبّه له.

الفصل الأوّل

في علم الجَدَل[1]

قد وقعت المخاصمة في القرآن العظيم مع الفِرَقِ الأربع الضَّالة: المشركين واليهود والنصارى والمنافقين. وهذه المخاصمة على طريقين:

الأول: أن يَذْكُرَ سبحانه وتعالى العقيدة الباطلة، مع التنصيص على شناعتها، ويذكر استنكارها فحسب.

الثاني: أن يبيِّن شبهاتهم الواهية، ويذكر حَلّها بالأدلة البرهانيّة أو الخطابيّة.

١ـ ذِكْرُ المُشركين

وقد كان المشركون يسمّون أنفسهم حُنَفَاء،[2] ويدَّعون التَّدين بملّة سيدنا إبراهيم عليه السلام؛ وإنَّما يقال «الحنيف» لمن تديَّن بالملَّة الإبراهيميَّة، والتزم شعارها.

شعائرُ المِلَّة الإبراهيمية:

وشعائرها: حجُّ البيت الحرام، واستقباله في الصلوات، والغُسْل من

---

(١) يقال لعلم الجدل: علم المناظرة والمخاصمة أيضاً؛ والمراد به هنا: أنّ النفوس السّفلية إذا تولّدت بينها شبهات تُدَافِعُ بها الحقّ، فكيف تحلّ تلك العقد؟

(٢) الحنفاء: جمع حنيف على زِنَةِ فعيل: المائل عن الأديان كلّها إلى الدين القويم؛ من الحنف وهو الميل؛ وفي الاصطلاح: كلّ من كان على دين إبراهيم عليه السلام فهو حنيف.

الجنابة، والاختتان، وسائر خصال الفطرة[1]، وتحريم الأشهر الحرم، وتعظيم المسجد الحرام، وتحريم المحرَّمات النَّسَبِيّة والرضاعية، والذبح في الحلق، والنَّحر في اللَّبة، والتقرُّب بالذبح والنَّحر إلى الله تعالى، لا سيّما في أيَّام الحج.

شرائعُها:

وقد كان الوضوء، والصَّلاة، والصوم من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، والصدقة على اليتامى والمساكين، والإعانة على نوائب الحقِّ، وصلة الأرحام مشروعةً في أصل الملَّة، وكان التمدّح بهذه الأعمال شائعاً فيما بينهم، إلاّ أنّ جمهور المشركين قد تركوها، حتى صارت هذه الأعمال في حياتهم العملية كأن لم تكن شيئاً!

وقد كان تحريم القتل، والسرقة، والزِّنى، والرِّبا، والغصب أيضاً ثابتاً في أصل الملّة؛ وكان استنكار هذه الأفعال باقياً عندهم في الجملة؛ ولكنّ جمهور المشركين كانوا يرتكبونها، ويتَّبعون النَّفس الأمارة فيها.

عقائدها:

وقد كانت عقيدة إثبات الصَّانع سبحانه وتعالى، وأنَّه هو خالق الأرض والسَّماوات العلى، وأنَّه مدبِّر الحوادث العظام، وأنّه قادر على إرسال الرسل وجزاء العباد بما يعملون، وأنَّه مقدِّر للحوادث العظيمة قبل وقوعها، وأنّ الملائكة عباده المقربون، وأنّهم يستحقّون التعظيم، كلُّ ذلك كان ثابتاً

---

(١) خصال الفطرة: هي قصّ الشارب، وإعفاء اللحية، والسّواك، واستنشاق الماء، وقصّ الأظفار، وغسل البراجم، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء ـ يعني الاستنجاء، قال الراوي: ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة (رواه مسلم كتاب الطهارة: باب خصال الفطرة، برقم٢٦١) وفي رواية: الختان بدل إعفاء اللحية. (رواه أبو داود عن عمّار بن ياسر رضي الله عنهما).

عندهم، ويدلُّ على ذلك أشعارهم؛ ولكنّ جمهور المشركين قد وقعوا في شبهات كثيرةٍ تُجاه هذه المعتقداتِ لاستبعادها، وعدم أُلفتهم بإدراكها.

ضلال المشركين:

وكان من ضلالهم: الشِّرك، والتَّشبيه، والتحريف، وجحود الآخرة، واستبعاد رسالة النَّبيّ ﷺ، وشيوع الأعمال القبيحة والمظالم فيما بينهم، وابتداع التقاليد الباطلة، واندراس العبادات.

بيان الشِّرك:

والشِّرك: أن يثبت لغير الله تعالى شيئاً من الصفات المختصة به تعالى، كالتصرف في العالم بالإرادة ـ الّذي يعبَّر عنه بـ ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ ـ أو العلمِ الذاتي ـ غير المكتسب بالحواس، ودليل العقل، والمنام، والإلهام، ونحو ذلك ـ أو الإيجاد لشفاء المريض، أو اللعن على شخص، والسُّخط عليه حتّى يُقْدر عليه الرِّزق، أو يمرض، أو يشقى بسبب ذلك السُّخط، أو الرَّحمة لشخص حتى يبسط له الرّزق، ويَصِحَّ بدنه، ويسعد بسبب هذه الرَّحمة[1].

ولم يكن هؤلاء المشركون يشركون أحداً في خلق الجواهر[2]، وتدبير الأمر العظام، ولا يثبتون لأحد قدرة الممانعة[3] إذا أبرم[4] الله تعالى أمراً؛

---

(١) والحاصل: أنّ الصفات المذكورة من التّصرف في الكون، والعلم الذاتي، وإيجاد الشفاء، واللّعن، والسخط، والرحمة كلّها مختصّة بالله تعالى، فمن أثبت شيئاً منها لغيره تعالى فقد أشرك.

(٢) جمع الجوهر، وهو ما قام بنفسه، ويقابله: العَرَض، والمراد: المكوّنات المادّيّة.

(٣) الممانعة: المنازعة.

(٤) أبرم الأمر: أحكمه.

وإنَّما كان إشراكهم في أمور خاصة ببعض العباد، ويظنُّون أنّ سلطاناً عظيماً من السلاطين كما يرسِل عبيده المخصوصين إلى نواحي مملكته، ويجعلهم مختارين متصرِّفين في أمور جزئيّة، إلى أن يصدر عنه حكم صريح في أمر خاص، ولا يقوم بشؤون الرَّعيّة وأمورهم الجزئيّة بنفسه، بل يَكِلُ الرَّعية إلى الولاة والحكام، ويقبل شفاعتهم في حقِّ الّذين يخدمونهم، ويتوسَّلون بهم؛ كذلك قد خلع الملِك على الإطلاق[1] على بعض عباده خِلْعَة الألوهيّة، وجعل سخْطهم ورضاهم مؤثِّراً في عباده الآخرين. فيرون التزلُّف[2] إلى أولئك العباد المقرَّبين واجباً؛ ليتيسر لهم حسن القبول في حضرة الملك المُطْلَق، وتُقبل شفاعتهم للمتقربين بهم في مجاري الأمور[3].

وكانوا يجوِّزون نظراً إلى هذه الأمور: أن يُسجَد لهم، ويُذْبَح لهم، ويُحلَف بهم، ويستَعان بقدرتهم المطلقة في الأمور المهمّة. ونحتوا صوراً كصورهم من الحجر والصُّفر، وجعلوها قبلة للتَّوجّه إلى تلك الأرواح؛ حتى اعتقد الجهّال شيئاً فشيئاً تلك الصور معبودة بذواتها؛ فتطرَّق[4] الفساد العظيم إلى المعتقدات.

بيان التشبيه:

والتشبيه: عبارة عن إثبات الصفات البشريَّة لله تبارك وتعالى، فكانوا يقولون: إنّ الملائكة بنات الله، وإنّه تعالى يقبل شفاعة عباده، وإن لم يرض

---

(١) قوله: «على الإطلاق» أي: الكامل في التصرف، يفعل ما يشاء؛ مِنْ: أطلق له التصرف: أباحه.

(٢) التّزلّف: التّقرّب.

(٣) مجاري الأمور: هي ما دون الأمور العظام.

(٤) تطرّق إليه: ابتغى إليه طريقاً.

بها، كما يفعل الملوك أحياناً مثل ذلك مع الأمراء الكبار؛ ولَمَّا لم يستطيعوا إدراك علمِهِ تعالى وسمعه وبصره، كما يليق بشأن الألوهيّة، قاسوها على علمهم وسمعهم وبصرهم، فوقعوا في عقيدة التجسيم[1]، ونسبوا التَّحيّز إلى الله تعالى شأنه.

بيان التحريف:

وأمّا التحريف فإنَّ قصَّته: أنّ أولاد سيدنا إسماعيل عليه السلام كانوا على شريعة جدِّهم الكريم: سيِّدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، حتَّى جاء عصر عمْرِو بن لُحَيٍّ[2] ـ لعنه الله ـ فوضع لهم الأصنام، وشرع لهم عبادتها، واخترع لهم تحرير البحائر والسَّوائب والحَامِي، والاستقسام بالأزلام، وأمثال هذه الطقوس[3]، وقد كان هذا الحادث[4] قبل بعثة النبيّ ﷺ بقُرابة ثلاث مائة سنة، وكانوا يتمسّكون في هذا الباب[5] بآثار آبائهم، ويرونها من الحجج القاطعة.

جحود الآخرة:

وقد بيّن الأنبياء السَّالفون الحَشر والنَّشر؛ ولكن لم يكن ذلك البيان بشرح وبسط مثل ما تضمَّنه القرآن العظيم، ولذلك كان جمهور المشركين قليلي الاطّلاع عليه، وكانوا يستبعدون وقوعه.

---

(١) التجسيم: عقيدة أنّ الله تعالى لهِ جسم كأجسامنا. والتحيز: عقيدة أنّ الله تعالى متمكّن في مكان.

(٢) عمرو بن لُحَيّ: من قحطان، كنيته أبو ثمامة، وفي نسبه اختلاف شديد، ويظنّ أنّه كان في أوائل القرن الثالث من الميلاد.

(٣) الطقوس جمع الطّقس: وهي المراسيم الدينيّة.

(٤) يعني وقعة عمرو بن لحي.

(٥) يعني في جواز عبادة الأصنام.

استبعاد رسالة النّبيّ ﷺ:

وهؤلاء الجماعة وإن كانوا معترفين بنبوّة سيِّدنا إبراهيم وسيِّدنا إسماعيل عليهما السَّلام؛ بل بنبوّة سيدنا موسى عليه السّلام أيضاً[١]، ولكن كانت الصِّفات البشريّة ـ التي هي حجاب لجمال الأنبياء الكامل[٢] ـ تشوِّشهم تشويشاً[٣]؛ وكذلك لمَّا لم يعرفوا حقيقة تدبير الله الّذي هو مقتضي بعثة الأنبياء، استبعدوا الرِّسالة، لاعتقادهم أنَّ الرسول ينبغي أن يكون مثل المرسِل، فكانوا يوردون لأجل ذلك شبهات واهية، غير مسموعة، فيقولون مثلاً: كيف يكون النّبيّ محتاجاً إلى الطّعام والشراب؟ ولماذا لم يرسل الله ملكاً رسولاً؟ ولماذا لا يوحي إلى كل أحد على حدة؟ وعلى هذا الأسلوب.

نموذج المشركين:

وإن كنت غير مهتد في تصوير[٤] حال المشركين وعقائدهم وأعمالهم، فانظر إلى حال المحترفين[٥] من أهل عصْرنا، لا سيّما الّذين يقطُنون منهم بأطراف دار الإسلام[٦]، ما هي تصوّراتهم عن «الولاية»؟ فمع أنّهم يعترفون بولاية الأولياء المتقدّمين، يرون وجود الأولياء في هذا العصر من قبيل المستحيلات، ويذهبون إلى القبور والعتبات، ويرتكبون أنواعاً من الشرك[٧]؛

---

(١) أي مع كونه عليه السلام من غير آبائهم.

(٢) أي تحول تلك الصفات بين الأنبياء وبين جمالهم الحقيقي، وتحجبهم، فلا يدركون ذاك الجمال الكامل لجهلهم.

(٣) شوّش الأمر: صيّره مضطرباً.

(٤) صوّر الأمر: وصفه وصفاً يكشف حاله كشفاً بيناً.

(٥) احترف: اتّخذ خرفة فهو محترف.

(٦) أي لما أنّهم يسكنون بنواحي دار الإسلام وأرجائها يكونون جاهلين من الدّين.

(٧) أي هم لا يستفيدون من الأولياء الأحياء، بل يذهبون إلى الأموات، ويرتكبون هناك البدع والخرافات.

وكيف تطرّق إليهم التشبيه والتحريف؟ ونرى طبق الحديث الصحيح: «لتتّبعنّ سَنَنَ من كان قبلكم»[1] أنه ما من بلية من البلايا إلاّ وطائفة من أهل عصرنا يرتكبونها، ويعتقدون مثلها، عافانا الله سبحانه وتعالى من ذلك.

وبالجملة: فإنّ الله تعالى بعث سيّد الأنبياء ﷺ ـ بفضله ورحمته ـ في العرب، وأمره بإقامة الملَّة الحنيفيّة، وخاصمهم[2] في القرآن العظيم، واستدل في المخاصمة بمسلّماتهم التي هي من بقايا الملة الحنيفيّة، ليتحقق الإلزام.

فرَدُّ الإشراك:

أوّلاً: بمطالبتهم بالدليل على ما يزعمون، ونقض تمسُّكهم بتقليد آبائهم.

ثانياً: بإثبات عدم التساوي بين هؤلاء العباد وبين الرَّب تبارك وتعالى؛ وبيان اختصاصه تعالى باستحقاقه أقصى غاية التعظيم، بخلاف هؤلاء العباد.

ثالثاً: ببيان إجماع الأنبياء على هذه المسألة، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾[3].

رابعاً: ببيان شناعة عبادة الأصنام، وأن الأحجار ساقطة عن مرتبة الكمال الإنساني، فكيف ينالون مرتبة الألوهيّة؟ ـ وهذا الردّ مسوق لقوم يعتقدون الأصنام معبودة لذواتها[4].

وردُّ التشبيه:

أوّلاً: بمطالبتهم بالدليل على دعواهم، ونقض تمسكهم بتقليد آبائهم.

---

(١) رواه الشيخان واللفظ لأحمد والبيهقي.

(٢) أي جادلهم ونازعهم.

(٣) سورة الأنبياء٢٥.

(٤) وأمّا الّذين يظنّون الأصنام وسيلة التّقرب، وقبلة التّوجه فلا يكبتهم هذا الجواب.

وثانياً: ببيان ضرورة التجانس بين الوالد والولد؛ وهو مفقود بالبداهة.

وثالثاً: ببيان شناعة نسبة ما هو مكروه ومذموم لديهم إلى الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾؟[1] ـ وهذا الرد مسوق لقوم اعتادوا المقدّمات المشهورة، والمتوهّمات الشّعريّة[2]؛ وكان أكثرهم من هذا القبيل.

وردُّ التحريف:

أوّلاً: ببيان أنّه لم يؤثر عن أئمة الملّة الحنيفيّة.

وثانياً : ببيان أنّ ذلك كلّه اختراعات وابتداعات ممن ليسوا بمعصومين.

وردُّ استبعادِ الحشر والنشر:

أوّلاً: بالقياس على إحياء الأرض بعد موتها، وما أشبه ذلك[3]، وتنقيح المنَاط الذي هو شمول القدرة، وإمكان الإعادة[4].

ثانياً: ببيان موافقة أهل الكتب السماويّة كلّهم في الإخبار به[5].

---

(١) سورة الصّافات ١٤٩.

(٢) المتوهّمات: قضايا كاذبة يحكم بها الوهم في أمور غير محسوسة. والشعر: قول مؤلّف من المخيّلات. والمخيّلات: قضايا يخيّل بها؛ لتتأثّر النفس بها قبضاً وبسطاً، فترغب فيها، سواء كانت صادقة أو كاذبة، كقول القائل: الخمر ياقوتة سيّالة. فحينئذ تنبسط النّفس وترغب فيها؛ والعسل مرّة مُهَوِّعة، فالنّفس تنقبض وتنفر عنه.

(٣) كقياس الإعادة على الابتداء.

(٤) أي نقول: إنّ الإعادة موقوفة على أمرين: الأول: كون الإعادة ممكنة، والثاني: كون قدرة الله تعالى شاملة عليه، وثبت كلا الأمرين، فأيّ استحالة فيهما؟

(٥) أي نقول: إنّ الكتب السماويّة كلّها متّفقة في الإخبار بوقوع الحشر والنّشر، فكان ذلك إجماعاً قاطعاً عليه.

والردُّ على منكري الرسالة:

أوّلاً: ببيان وجودها في الأنبياء السابقين، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[2].

وثانياً: بدفع الاستبعاد ببيان أن الرسالة هنا عبارة عن الوحي، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾[3]، ثمّ يفسّر الوحي بما لا يكون من المستحيلات، كما قال تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾[4].

وثالثاً: ببيان أنّ عدم ظهور المعجزات التي يقترحونها[5]، وعدم موافقة الله تعالى إيّاهم في تعيين شخص يتوخّون[6] رسالته، وعدم إرساله تعالى الملائكة رسلاً، وعدم إيحائه تعالى إلى كل شخص، كلّ ذلك لمصلحةٍ كلّيّة، يقصر علمهم عن إدراكها.

ولمّا كان أكثر الناس الّذين بعث الله إليهم الرسول ﷺ مشركين، ذكر هذه المعاني في القرآن الكريم في سورٍ كثيرةٍ بأساليب متعددة، وتأكيدات بليغة، ولم يتحاشَ[7] عن تكرارها وتردادها. نعم! هكذا ينبغي أن تكون مخاطبة الحكيم المُطْلَق مع هؤلاء الجهلة؛ والكلام في مقابلة هؤلاء السفهاء جديرٌ بهذا التأكيد البليغ، ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

---

(١) سورة يوسف ١٠٩.

(٢) سورة الرّعد ٤٣.

(٣) سورة حم السجدة ٦.

(٤) سورة الشورى ٥١.

(٥) اقترح عليه كذا وبكذا: تحكّم وسأله إيّاه بالعنف، ومن غير رويّة.

(٦) توخّى الأمرَ: قصد إليه، وتعمّد فعله، وتحراه. يقال: توخّى رضاه، وتوخّى محبته.

(٧) تحاشى عن كذا: تنزّه.

٢ ـ ذِكْرُ اليهود

وقد كان اليهود، آمنوا بالتوراة، وكان من **ضلالهم**:

١ـ تحريف أحكام التوراة، سواء كان تحريفاً لفظيّاً، أو تحريفاً معنويّاً.

٢ـ وكتمان آيات التوراة.

٣ـ وإلحاق ما ليس منها بها، افتراءً منهم.

٤ـ والتّقصير في تنفيذ أحكامها.

٥ـ والعصبيّة الشديدة لديانتهم.

٦ـ واستنكار رسالة نبيّنا ﷺ، وسوء الأدب والطعن عليه ﷺ، بل بالنسبة إلى الربِّ تبارك وتعالى أيضاً.

٧ـ وابتلاؤهم بالبخل والحرص، ونحو ذلك من الرذائل.

بيان التحريف

وقد تحقّق لدى الفقير أنّ تحريفهم اللّفظي[1] قد كان في ترجمة التوراة وأمثالها، لا في أصل التوراة؛ وهو قول ابن عبّاس رضي الله عنهما.

والتحريف المعنوي: هو تأويل فاسد بحمل الآية على غير معناها، بتعسُّف وانحراف عن سواء السبيل.

---

(١) اعلم: أنّ في التحريف ثلاثة مذاهب: ذهب جماعة إلى إنكار التحريف اللفظي رأساً، فالتحريف عندهم كلّه معنوي، وإليه جنح الإمام المصنّف رحمه الله تعالى؛ وذهب جماعة إلى أنّ التحريف اللفظي موجود فيها، ولكنّه قليل؛ وقال جماهير العلماء: إنّ التحريف قد وقع في الكتب السماويّة بكل نحو من اللفظي والمعنوي كثيراً.

أمثلة التحريف المعنوي:

١ـ فمن جملة ذلك: أنّ الله تعالى قد بيّن الفَرْق بين المتديّن الفاسق والكافر الجاحد في كلّ ملّة، وتوعّد الكافر بالخلود في النّار والعذاب الأليم، وجوّز خروج الفاسق من النّار بشفاعة الأنبياء، وصرَّح بذلك في كلّ ديانة باسم المتديِّن بتلك الديانة، فأثبت ذلك في التوراة لليهود والعِبْرِيِّين[1]، وفي الإنجيل للنصرانيين، وفي القرآن العظيم للمسلمين. ومناط الحكم: هو الإيمان بالله واليوم الآخر، والإيمان بالنّبيّ الّذي بعث إليهم، والانقياد له، والعمل بشرائع ملّته، والاجتناب عن نواهيها؛ لا تخصيص الحكم بفرقة من الفِرَق لذاتها.

ولكنّ اليهود زعموا أن كلّ من كان يهوديًّا أو عِبْرِيًّا فهو من أهل الجنّة، وتُخَلِّصه شفاعة الأنبياء من العذاب، ولا يمكث في النّار إلاّ أياماً معدودات، وإن لم يتحقّق ذلك المناط، ولم يكن إيمانه بالله تعالى على الوجه الصحيح، ولم يدرك حظًّا من الإيمان بالآخرة، ورسالة النبيّ المبعوث عليهم.

وهذا خطأٌ صِرْفٌ وجهل مَحْضٌ، وقد كشف القرآن العظيم هذه الشبهة على أتمّ وجه، لِمَا أنّه كان مهيمناً[2] على الكتب السابقة، مبيّناً لمواضع الإشكال فيها، فقال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[3].

٢ـ ومن جملة ذلك: أنّه تعالى قد بيّن في كلّ ملّة أحكاماً تناسب مصالح ذلك العصر، ورُوعِيت في التشريع[4] عادات القوم الصالحة، وأكد الأمر

---

(١) يقال لليهودي: العبري والعبراني، تسمية لهم باسم لغتهم؛ وهم يسمّون أنفسهم بالإسرائيلي، نسبة إلى إسرائيل، أي يعقوب عليه السلام.

(٢) هيمن على الشيء: سيطر عليه، وراقبه وحفظه.

(٣) سورة البقرة٨١.

(٤) التشريع: سنّ القوانين.

بالأخذ بها، وإدامة العمل عليها، والاعتقاد بها، وحصر الحَقِّيَّة فيها؛ والمراد أنّ الحقّ منحصر فيها في ذلك العصر، وأنّ الإدامة عليها[1] إضافية، لا حقيقية، أي: ما لم يأت نبيّ آخر، وما لم يكشف السِّتار عن وجه رسالته.

ولكنّ اليهود حملوا ذلك على استحالة نسخ اليهودية؛ وكان معنى[2] وصية التمسّك بها، هو الوصاية بالإيمان بالله والتّمسّك بالأعمال، ولم تكن خصوصية تلك الملّة معتبرةً لذاتها؛ ولكنّ اليهود اعتبروا الخصوصيّة، فظنّوا أنّ يعقوب عليه السلام وصّى بنيهِ بالتمسّك باليهوديّة أبداً.

٣ـ ومن جملة ذلك: أنّ الله تعالى شرّف الأنبياء، والتابعين لهم بإحسان، في كلّ ملّة بوصف المقرّب والمحبوب، ووصف الّذين ينكرون الملّة بالمغضوب؛ وأطلق في هذا الباب لفظاً شائعاً في كلّ قوم، فلا عجب لو استعمل كلمة «الأبناء» مقام المحبوبين؛ ولكنْ ظنّ اليهود أنّ هذا التشريف دائر مع اسم اليهوديّ والعِبْريّ والإسرائيلي، ولم يعرفوا أنّه دائر مع صفة الانقياد والخضوع، والسّير على الحقّ الذي أنزله الله على الأنبياء لا غير.

وقد ارتكز[3] في خواطرهم كثير من التأويلات الفاسدة من هذا القبيل، وتلقَّوْها وتوارثوها عن آبائهم وأجدادهم؛ فدَحَض[4] القرآن الكريم هذه الشبهات على أتم وجه.

---

(١) ضمائر التأنيث كلّها ترجع إلى الملّة

(٢) هذا جواب سؤال مطوي، وهو أنّ اليهود يدّعون أنّ يعقوب عليه السلام يوم مات وصّى بنيه بالتّمسك باليهوديّة، فيستدلّون بتلك الوصية على استحالة نسخ اليهوديّة، والجواب: أنّ ذلك افتراء منهم على يعقوب عليه السلام، ولم يكن معنى وصيّته هذا، بل كان معناه... إلخ.

(٣) ارتكز الشيء: ثبت واستقرّ في محلّه

(٤) دحض الحجّة: أبطلها ودفعها

بيان كتمان الآيات:

أمّا كتمان الآيات: فهو أنّهم كانوا يخفون بعض الأحكام والآيات للمحافظة على جاهٍ شريف، أو لطلب منصب عزيز، لئلا يتلاشى اعتقاد العامّة فيهم، ولا يلاموا على ترك العمل بتلك الآيات.

أمثلته:

١ـ فمن جملة ذلك: أنّ حُكْمَ رجم الزاني مصرّح به في التوراة، ولكنّهم أهملوه لإجماع أحبارهم [1] على إهماله، وإقامة الجلد وتسخيم [2] الوجه مقامه، وكانوا يخْفون تلك الآيات خشية الفضيحة.

٢ـ ومن جملة ذلك: أنّ الآيات [3] التي فيها بشارة ببعثة نبيّ في أولاد هاجر [4] وإسماعيل عليهما السّلام، والّتي فيها إشارة إلى وجود ملّة، يَتمّ ظهورها وشهرتها في أرض الحجاز، وتمتلئ بها جبال عرفة من التلبية، ويؤُمّ النّاس ذلك الموضع من الأقطار والأمصار؛ وهي ثابتة في التوراة حتّى اليوم؛ فكان اليهود يتأوّلونها بأنّ ذلك إخْبارٌ بوجود تلك الملّة، وليس فيها أمر باتّباعها؛ وكانوا يردّدون هذه الكلمة «ملحمة كتِبَت علينا» [5]

ولِمَا أنّ هذا التّأويل الركيك لا يسمعه أحد، ولا يصحّ عند أحد، كانوا يتواصون فيما بينهم بإخفائها، ولا يسامحون بإظهارها على كلّ عامّ وخاص،

---

(١) الأحبار جمع حبر ـ بفتح أوّله، وبكسره ـ: العالم الكبير عند النصارى، ورئيس الكهنة عند اليهود.

(٢) سخّم الله وجهه: سوّده، والسَّخَم: السّواد.

(٣) يعني آيات التوراة.

(٤) هاجر على زنة فاعل: أم إسماعيل عليهما السّلام، ويقولون: آجر، فيبدلون الهمزة من الهاء.

(٥) أي كانوا يقولون: كتب علينا الحرب الشديدة مع النّبي الّذي سيظهر في أولاد إسماعيل، فكأنّنا أمرنا بمخالفته، لا باتباعه.

كما حكى الله تعالى عنهم: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْۚ﴾[1].

ما أجهلهم! هل يمكن أن تحمل منّة الله تعالى على هاجر وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ بهذه المبالغة، وذِكْر هذه الأمّة بهذه الفضيلة، على الإخبار بوجود تلك الملّة، ولا يكون فيه حثّ وتحريض على اتباع هذا الدين؟! سبحانك هذا إفك عظيم!

بيان الافتراء:

أمّا الافتراء[2] فأسبابه:

١ـ دخول التّعمق والتّشدد على أحبارهم ورهبانهم.

٢ـ والاستحسان، أي: استنباط بعض الأحكام بناءً على إدراك المصالح فيها، بدون نصّ من الشارع.

٣ـ وترويج الاستنباطات الواهية.

فأتباعهم ألحقوها بالأصل[3]، زعماً منهم أنّ اتفاق سلفهم على شيءٍ منْ الحجج القاطعة؛ فلم يكن عندهم مستند في إنكار نبوّة عيسى عليه السلام إلاّ أقوال سلفهم؛ وكذلك كان حالهم في كثير من الأحكام.

سبب التساهل وارتكاب المَناهي:

وأمّا التّساهل في تنفيذ أحكام التّوراة، وارتكاب البخل والحرص، فظاهر أنّه من مقتضيات النّفس الأمارة، وهي تغلِب النّاس جميعاً إلاّ من شاء

---

(١) سورة البقرة٧٦

(٢) الافتراء على الله: نسبة ما يكتبونه بأيديهم إلى الله تعالى وإلى التوراة

(٣) أي بأصل الكتاب والشريعة.

الله؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾[1].

ولكنّ هذه الرّذيلة[2] قد تلوّنت في أهل الكتاب بلون آخر؛ وهو أنّهم كانوا يتكلّفون تصحيحها بتأويل فاسد، وكانوا يبرزونها في صبغة الدّين.

أسباب استبعاد رسالة سيّدنا محمد ﷺ:

وأمّا استبعاد رسالة سيّدنا محمد ﷺ، فأسبابه:

١ـ اختلاف عادات الأنبياء وأحوالهم في إكثار التّزوج والإقلال منه، وما أشبه ذلك.

٢ـ واختلاف شرائعهم.

٣ـ واختلاف سنّة الله تعالى في معاملة الأنبياء.

٤ـ وبعثة النّبي ﷺ من بني إسماعيل، بعدما كان جمهور الأنبياء من بني إسرائيل.

٥ـ وأمثال هذه الأسباب.

النّبوة ومنهجها في إصلاح النّاس:

والأصل في هذه المسألة: أنّ النّبوة كائنة لإصلاح نفوس النّاس، وتهذيب عباداتهم وتعديل عاداتهم، لا لإنشاء أصول البرِّ والإثم؛ ولكل قوم عادات في العبادات، وتدبير المنزل، والسياسة المدنيّة، فإذا ظهرت فيهم النّبوة فلا تستأصل هذه العادات بالمرّة، ولا تضع لهم عادات جديدة، بل تميّز فيما بين العادات، فما كان منها صالحاً مطابقاً لرضا الله تعالى تبقيه وتحفظه، وما كان منها مخالفاً للأصل، منافياً لرضا الله تعالى تغيّره حسب الضرورة وتعدّله.

---

(١) سورة يوسف٥٣

(٢) الرّذيلة: ضدّ الفضيلة، والجمع: رذائل.

٣ـ ذكر النّصارى

عقيدة التّثليث والرَّدُّ عليها:

أمّا النّصارى: فكانوا مؤمنين بسيّدنا عيسى عليه السّلام، وكان ضلالهم: أنّهم يزعمون أنّ لله تبارك وتعالى ثلاثةَ أجزاء متغايرة بوجه، ومتّحدة بآخر؛ وكانوا يسمونها «الأقانيم[١] الثلاثة»:

أحدها: الأب؛ وهو بإزاء مبدأ العالم[٢].

والثّاني: الابن؛ وهو بإزاء الصّادر الأوّل الّذي هو معنى عامّ شامل لجميع الموجودات[٣].

والثّالث: روح القُدس؛ وهو بإزاء العقول المجرّدة.

وكانوا يعتقدون أنّ أقنوم «الابن» تدرَّع[٤] بروح عيسى عليه السّلام، أي كما أنّ جبريل عليه السّلام قد يظهر في صورة الإنسان، كذلك ظهر الابن في صورة روح عيسى عليه السّلام؛ فعيسى إله وابن إله وبشر أيضاً في وقت واحد؛ وتجري عليه الأحكام البشريّة والإلهية معاً.

---

(١) الأقانيم جمع (الأقنوم) وهي كلمة سريانيّة، معناها: الشخص، والأصل.

(٢) قارن الإمام المصنّف رحمه الله تعالى مصطلحات النصارى بمصطلحات الفلاسفة؛ والفلاسفة يعنون بمبدأ العالم ذات الواجب تعالى، وبالصادر الأول العقل الأول، وبالعقول المجرّدة العقول العشرة؛ والعقل عندهم: جوهر مستغن في أفعاله عن الآلات الجسمانيّة، متوسّط بين الواجب ومصنوعاته في إفاضة الوجود

(٣) الصادر الأول أي العقل الأوّل عند الفلاسفة سبب لوجود جميع الكائنات، فهو شامل لجميع الموجودات بهذا المعنى.
وهو عند أرباب الحقائق: الوجود المنبسط المخلوق، ومنه وجد العالم بحذافيره.

(٤) تدرّع أي تقمّص

وكذلك يكون التّذكير بآلاء الله، وبأيّام الله على الأسلوب الّذي هو معروف عندهم، وشائع لديهم؛ فهذا هو السّبب في اختلاف شرائع الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام.

اختلاف الشّرائع كاختلاف وصفات الطّبيب:

وهذا الاختلاف في الشرائع كالاختلاف في وصفات الطّبيب؛ فإنّه إذا دبّر أمر المريضين يصف لأحدهما دواءً وغذاءً بارداً، ويأمر الآخر بدواءٍ وغذاء حارّ، وغرض الطّبيب من معالجتهما واحد، وهو إصلاح مزاجهما، وإزالة الموادّ الفاسدة منهما، لا غير؛ ويمكن أن يصف الطّبيب في كلّ منطقة أدوية وأغذية مختلفة، تلائم أهلها، وكذلك يختار في كلّ فصل من الفصول علاجاً مختلفاً يناسب ذلك الفصل.

كذلك لمّا أراد الطبيب الحقيقيّ ـ جلّ مجدُه ـ معالجة من ابتُلِيَ بالمرض النّفسانِيّ، وتقوية القوّة الملكيّة، وإزالة الفسادِ الطّارئ عليهم، اختلفت المعالجة بحسب اختلاف أقوام كلّ عصرٍ وعاداتهم، ومشهوراتهم، ومسلّماتهم.

أنموذج اليهود:

وعلى كلٍّ، فإنْ أردتَ أن ترى أنموذج[1] اليهود، فانظر علماء السّوء الّذين يطلبون الدّنيا، ويولعون بتقليد السّلف، ويعرضون عن نصوص الكتاب والسّنّة، ويستندون إلى تعمُّق عالم وتشدّده، أو إلى استحسانه، فأعرضوا عن كلام الشّارع المعصوم، وجعلوا الأحاديث الموضوعة، والتأويلات الفاسدة قدوةً، فانظر كأنّهم هم!

* * *

(١) الأنموذج والنّموذج: مثال الشيء، أصلهما كلمة فارسيّة.

وكانوا يتمسّكون في إثبات هذه العقيدة ببعض نصوص الإنجيل التي أطلق فيها لفظ «الابن» على عيسى عليه السّلام[1]، وكذلك يستدلّون بالآيات التي نسب فيها عيسى عليه السلام بعض أفعال الله تعالى إلى نفسه[2].

وجواب الإشكال[3] الأوّل: على تقدير صحَّة نصوص الإنجيل، وأنّه ليس فيها تحريف: أنّ لفظ «الابن» في العهد القديم، كان مستعملاً بمعنى المحبوب والمقرّب والمجتبى، كما يدل عليه كثير من القرائن في الإنجيل.

وجواب الإشكال الثاني: أنّ تلك النّسبة على طريق الحكاية؛ كما يقول رسول الملك: «إنّا فتحنا البلد الفلانيّ» و«لقد حطّمنا القلعة الفلانيّة»، وفي الحقيقة هذا راجع إلى الملك؛ وأمّا الرّسول فإنّما هو ترجمان الملك فحسب.

والجواب الثاني: أنّه يحتمل أن يكون الوحي إلى عيسى عليه السّلام عن طريق انطباع[4] المعاني في لوح قلبه من قِبَل العالم العلويّ، لا عن طريق تمثّل جبرائيل عليه السّلام في صورة البشر، وإلقاء الكلام إليه؛ فبسبب هذا الانطباع جرى منه عليه السّلام كلام مشعر بنسبة تلك الأفعال إلى نفسه؛ والحقيقة غير خفيَّة.

وبالجملة: فقد ردّ الله تعالى هذا المذهب الباطل، وبيّن أن عيسى عبد الله وروحه المطهّرة التي نفخها في رحم مريم الصِّدِّيقة، وأنّه تعالى أيّده بروح القُدس، وحاطه[5] عليه السّلام بعناية خاصّة.

---

(١) راجع إنجيل مُرْقُس١٣: ٣٢ وإنجيل لوقا٢٣: ٤٦، والمواضع الكثيرة من إنجيل يوحنّا.

(٢) كما في الأصحاح الثامن من إنجيل متّى: (جاء أبرص فقال لعيسى: يا ربّ إن شئت فأنت قادر على تطهيري، فمدّ يسوع يده ولمسه، وقال: «قد شئت فاطهر» فطهر للوقت من برصه. (الآيات ١ـ٣).

(٣) الإشكال بمعنى الاشتباه والالتباس، من أشكل الأمر: إذا التبس

(٤) الانطباع مطاوع لطبع.

(٥) حاط حوطاً الشيء: حفظه وتعهدّه بجلب ما ينفعه، ودفع ما يضرّه

وبالجملة: فلو فرضنا أنّ الله سبحانه وتعالى ظهر في الكِسْوَة الرُّوحيّة، التي هي من جنس الأرواح[1] وتدرَّع بالبشريّة، فلا ينطبق لفظ «الاتحاد»، على هذا المعنى عند التّدقيق والإمعان، إلا بتسامح. وأقرب الألفاظ لهذا المعنى: هو «التقويم» ومثله[2]؛ تعالى الله عمّا يقول الظّالمون علوّاً كبيراً.

أنموذج النّصارى:

وإن شئت أن ترى نموذجاً لهذا الفريق، فانظر اليوم إلى أولاد المشايخ والأولياء، ماذا يظنّون بآبائهم؟ وإلى أيّ حدّ وصلوا بهم! ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾![3]

عقيدة مصلوبيّة المسيح والرّد عليها:

ومن ضلالاتهم أيضاً: أنّهم يجزمون بأنّ عيسى عليه السّلام قد قتل، مع أنّ الواقع خلاف ذلك، وقد شبّه لهم، والتبس عليهم الأمر، فظنّوا رفعه إلى السّماء قتلاً، ورووا هذا الغلط كابراً عن كابر، فكشف الله تعالى السّتار عن حقيقة الأمر في القرآن العظيم قائلاً: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾[4].

---

(١) أي أنّ الكسوة الروحيّة أيضاً روح من الأرواح.

(٢) حاصل ما قاله الإمام المصنّف رحمه الله: أنّ النصارى يقولون بالاتحاد بين الله تعالى وبين عيسى عليه السلام، بأنّ الله تعالى تقمّص بشرية عيسى عليه السلام، فصار متّحداً معه، فردّ عليهم المصنّف رحمه الله، وقال: لو فرضنا أنّ الله تعالى صار روحاً في أول الأمر، ثمّ تقمّص بشريّة عيسى عليه السلام ثانيا، فلا ينطبق عليه لفظ «الاتحاد»، أي لم يصر سبحانه وتعالى مع هذا متّحداً مع عيسى عليه السلام في النظر الممعن؛ لأنّ الله تعالى بمنزلة الرّوح، وبشريّة عيسى بمنزلة الجسد، والرّوح لا تكون متّحدة مع الجسد أبداً، بل تكون مقوّمة ومعدّلة فحسب، فكيف يقول الظالمون بالاتّحاد بينه تبارك وتعالى وبين عبده عيسى عليه الصلاة والسلام؟!

(٣) سورة الشعراء ٢٢٧.

(٤) سورة النّساء ١٥٧.

وأمّا ما ذكر في الإنجيل من قول عيسى عليه السّلام في هذا الباب[1] فمعناه: أنّه إخبار بجرأة اليهود، وإقدامهم على قتْله؛ ولكنّ الله تعالى أنجاه من هذه المهلكة.

وأمّا كلام الحواريين[2] فإنّه ناشٍ عن اشتباه الأمر، وعدم وقوفهم على حقيقة الرّفع الّذي لم يكن مألوفاً لعقولهم، ولا لأسماعهم.

تحريفهم في بشارة الفارقليط[3]:

ومن ضلالاتهم أيضاً: أنّهم يقولون: إنّ الفارقليط الموعود هو عيسى عليه السّلام نفسه، الّذي جاء بعد قتله إلى الحواريين، وأوصاهم بالتّمسك بالإنجيل[4]، ويقولون: إنّ عيسى عليه السّلام أوصاهم أيضاً بأنّ المتنبّئين سيكثرون، فمن سمّاني فاقبلوا كلامه، وإلا فلا.

وقد بيّن القرآن العظيم أنّ بشارة عيسى عليه السّلام تصْدق على نبيّنا ﷺ، لا على الصّورة الرُّوحيّة لعيسى عليه السّلام؛ لأنّه قد صُرّح في الإنجيل بأنّ الفارقليط يمكث فيكم مدّة طويلة، ويعلّم العلم، ويزكّي النّاس؛ ولا يظهر هذا المعنى في غير نبيّنا ﷺ[5].

وأمّا ذكرُ عيسى عليه السّلام وتسميته فالغرض منه التصديق بنبوّته، لا أن يتّخذه ربًّا، أو يعتقد بأنّه ابن الله.

---

(١) جاء في إنجيل متّى(٢٦:٤٥): انظروا قد اقتربت تلك السّاعة، وابن النّاس يصلب بأيدي الفجّار الظلمة.

(٢) أي إخبار الحواريين بقتل عيسى عليه السلام.

(٣) فارقليط: كلمة سريانيّة، معناها: أحمد (أفعل التفضيل من الحمد) أي: الّذي يحمد الله تعالى أكثر من كلّ أحد.

(٤) كما في الباب الثاني من كتاب الأعمال، وراجع «إظهار الحقّ»٢: ١٩٧ـ٢٠١.

(٥) لأنّ روح عيسى عليه السلام لم تمكث عندهم إلا قليلاً، على زعمهم.

٤ ـ ذكر المنافقين

نفاق الاعتقاد ونفاق العمل:

أمّا المنافقون: فكانوا على قسمين:

١ـ طائفة منهم يقولون بألسنتهم: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، وقلوبهم مطمئنّة بالكفر، ويضمرون[1] الجحود الصّرف في أنفسهم، قال الله تعالى في حقّهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[2].

٢ـ وطائفة دخلوا في الإسلام مع ضعف فيه.

مظاهر نفاق العمل:

١ـ فمنهم من يعتاد موافقة قومهم: إنْ ثَبَت القوم على الإيمان ثبتوا، وإن رجع القوم إلى الكفر رجعوا.

٢ـ ومنهم من استولى على قلوبهم الانسياق[3] وراء اللّذات الدنيوية الدّنيئة، بحيث لم يذر في قلوبهم مكاناً لحب الله، وحبٍّ رسوله ﷺ.

٣ـ ومنهم من تملّك قلوبهم الحرص على المال والحسد والحقد، ونحو ذلك من الرذائل، بحيث لم يبق في قلوبهم محلٌّ لحلاوة الابتهال والمناجاة، ولا لبركات العبادات.

٤ـ ومنهم من انغمسوا في شؤون المعاش واشتغلوا بها، حتّى لم يبق لديهم فرصة للاهتمام بأمر الآخرة، وترقُّبها وللتفكير فيها.

---

(١) أضمر الشيء: أخفاه.

(٢) سورة النّساء ٤٥

(٣) الانسياق: مطاوع ساقه أي تبع غيره ومشى خلفه.

٥ـ ومنهم من تخطُر ببالهم ظنون واهية وشبهات ركيكة في رسالة نبيّنا ﷺ، وإن لم يبلغوا إلى أن يخلعوا رِبْقة الإسلام عن عنقهم، وينْفضوا أيديهم منه بتاتاً.

وسبب تلك الشُّكوك: جريان الأحكام البشريّة على نبيّنا ﷺ، وظهور الملّة الإسلاميّة في صورة سيطرة الملوك على أطراف البلاد، وأمثال ذلك.

٦ـ ومنهم من حملتهم محبّة القبائل والعشائر على أن يبذلوا الجهد البليغ في نُصرتهم، وتقويتهم وتأييدهم، ولو كان ذلك على مناوأة أهل الإسلام؛ ويضعّفون أمر الإسلام عند التّعارض، ويلحقون به الضّرر.

الكلام حول قسمي النّفاق:

وهذا القسم من النّفاق[1] هو نفاق الأعمال والأخلاق، ولا يمكن الاطّلاع على النّفاق الأوّل بعد سيّدنا محمد ﷺ؛ لأنّه من الأمور المغيّبة، ولا يمكن الاطلاع على مكنونات القلوب.

والنّفاق الثّاني كثير الوقوع، لا سيّما في عصرنا، وإليه جاءت الإشارة في الحديث الشريف: «أربع من كنّ فيه كان منافقاً خالصاً: إذا اؤتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»[2]، وقال: «همُّ المنافق بطْنه، وهمُّ المؤمن فَرْسُه»[3] إلى غير ذلك من الأحاديث.

الغرض من ذكر أحوال المنافقين في القرآن العظيم:

وقد كشف الله تعالى في القرآن العظيم عن معايب المنافقين وأعمالهم، وذكر من أحوال الفريقين أشياء كثيرة، لتحترز الأمة بأسرها منها.

---

(١) يعني القسم الثاني بجميع أنواعه.

(٢) رواه السّتة إلا ابن ماجه عن ابن عمرو رضي الله عنهما.

(٣) لم أجده مع الجهد البليغ.

نموذج المنافقين:

وإن شئت أن ترى نموذجاً للمنافقين، فانطلق إلى مجالس الأمراء، وانظر إلى مصاحبيهم وندمائهم، يؤثرون رضا الأمراء على رضا الله تعالى.

ولا فرق عند المنصف بين المنافقين الّذين سمعوا كلام الرّسول ﷺ مباشرة ثمّ نافقوا، وبين هؤلاء المنافقين الّذين ولدوا في هذا الزّمان، ثمّ علموا أحكام الشّريعة بطريق القطع واليقين، ثمّ أقدموا على خلافها، وانحرفوا عنها.

وكذلك طائفة من المعقوليين الّذين تمكّنت في خواطرهم شكوك وشبهات كثيرة، ونسوا الدّار الآخرة، فهم أيضاً نموذج المنافقين.

القرآن كتاب كلّ عصر:

وعلى كلّ، فإذا قرأت القرآن فلا تحسب أنّ المخاصمة كانت مع قوم انقرضوا، كلاّ، بل ما من بلاء كان فيما سبق من الزّمان إلا وهو موجود اليوم بطريق الأنموذج، كما ورد في الحديث الشريف: «لتتبِعُنّ سَنَنَ من كان قبلكم»[1] فمقصود القرآن الكريم بيان كليّات تلك المفاسد، لا خصوص الحوادث.

هذا ما تيسّر لي في هذا الكتاب من بيان عقائد الفِرَق الضّالة، والردود عليها؛ وأظنّ أنّ هذا القدر كافٍ في فهم معاني آيات الجدل إن شاء الله تعالى.

* * *

---

(١) حديث متّفق عليه، وتمامه: «شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتّى لو دخلوا جحر ضبّ تبعتموهم»، البخاري برقم ٦٨٨٨، ومسلم برقم ٦٨٨٩.

الفصل الثاني

في بقية مباحث العلوم الخمسة

❖ بيان التّذكير بآلاء الله:

لِيُعْلم أنّ نزول القرآن الكريم إنّما كان لإصلاح النّفوس البشريّة سواء كانوا عرباً أو عجماً، بدواً أو حضراً؛ فلذلك اقتضت الحكمة الإلهية أنْ لا يخاطب النّاس في التّذكير بآلاء الله إلا بما تسعه أذهانهم، وتحيط بهم مداركهم، ولا يبالغ في البحث والتّحقيق مبالغة زائدة؛ فسيق الكلام في أسماء الله تعالى وصفاته بوجه يمكن فهمه، والإحاطة به بإدراك وفطانة خُلق أكثر أفراد الإنسان عليهما في أصل خلقتهم، من دون حاجة إلى ممارسة الفلسفة الإلهية ومزاولة علم الكلام.

إثبات الذّات وبيان الصّفات:

فأثبت سبحانه وتعالى ذات المبدأ إجمالاً، إذ إنّ معرفته تعالى مركوزة في فطرة بني آدم؛ لا ترى طائفة منهم في الأقاليم الصّالحة، والأماكن القريبة من الاعتدال ينكرون ذلك.

ولمّا كان إثبات الصّفات الإلهيّة بطريق الإمعان، وتحقيق الحقائق، مستحيلاً بالنّسبة إلى أفراد الإنسان؛ ولو لم يطّلعوا على صفاته تعالى إطلاقاً لم يصلوا إلى معرفة الرّبوبيّة الّتي هي أنفع الأشياء في تهذيب النّفوس؛ فكان من حكمة الله تعالى: أنّه اختار شيئاً من الصّفات البشريّة الكاملة الّتي يعرفونها، ويجري التّمدّح بوجودها فيما بينهم، فاستعملها بإزاء المعاني

الدقيقة الغامضة الّتي لا مدخل للعقول البشريّة في ساحة جلالها؛ وجعل الأصل المصرّح بقوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ ترياقاً للدّاء العضال من الجهل المركّب؛ ومنع من إثبات الصّفات البشريّة الّتي تثير الأوهام إلى العقائد الباطلة، كإثبات الولد والبكاء والجزع له تعالى شأنه.

صفاته تعالى توقيفيّة:

وإنْ أمعنت النّظر في مسألة الصّفات الإلهيّة تجلّى لك أنّ الجري على مسطرة العلوم الإنسانيّة، غير المكتسبة، وتمييزَ صفات يجوز أن تنْسب إلى الله تعالى، ولا يقع بها خلل، عن الصّفات الّتي يؤدّي إثباتها إلى الأوهام الباطلة، أمر دقيق خطير للغاية، لا يدرك غوره جمهور النّاس؛ فلا جرم كان هذا العلم توقيفيًّا، لم يسمح فيه بالبحث بحرّيّة وإطلاق.

بيان آلائه وآيات قدرته:

واختار سبحانه وتعالى من آلائه وآيات قدرته ما يستوي في فهمه الحضريّ والبدويّ، والعربيّ والعجميّ؛ ولأجل ذلك لم يذكر النّعم الروحانية المخصوصة بالعلماء والأولياء[١]، ولم يخبر بالنّعم الارتفاقيّة المخصوصة بالملوك[٢]؛ وإنّما ذكر سبحانه وتعالى ما ينبغي ذكْرُه، مثل خلق السّماوات والأرض، وإنزال المطر من السّحاب، وتفجير الينابيع في الأرض، وإخراج أنواع الثِّمار والحبوب والأزهار بالماء، وإلهام الصنائع والحِرَف الضروريّة، وخلق القدرة لممارستها ومزاولتها.

---

(١) كفرح كشف النكات النافعة، ومسرّة حلّ المعضلات، وكحلاوة العبادة، والانبساط برؤية الأنوار الإلهيّة.

(٢) النّعم الارتفاقيّة: هي الّتي يحتاج إليها الرجل، ليقضي بها حاجاته النوعيّة، من الأكل والشرب والجماع والاستظلال من الشمس والمطر، والاستدفاء في الشتاء، وغيرها.

وقد نبّه في مواضع كثيرة على اختلاف أحوال النّاس عند هجوم المصائب، وانكشافها ببيان الأمراض النّفسانيّة الكثيرة الوقوع[1].

❖ بيان التّذكير بأيّام الله:

واختار سبحانه وتعالى من أيّام الله - أي من الوقائع الّتي أحدثها الله تعالى من قبيل تنعيم المطيعين، وتعذيب المجرمين - ما قرع أسماعهم[2] من قبل، وكانوا قد سمعوا عنه بالإجمال، مثل قصص قوم نوح وعاد وثمود الّتي تتلقّاها العرب أباً عن جدٍّ؛ ومثل قصص إبراهيم، وقصص أنبياء بني إسرائيل عليهم السّلام، الّتي ألفتها أسماعهم لطول اختلاط العرب مع اليهود؛ ولم يذكر القصص الغريبة، غير المألوفة للعرب، ولا أخبار مجازاة الفرس والهنود.[3]

ذِكر من القصص ما هو الغرض منها:

وانتزع سبحانه وتعالى من القصص المشهورة جماعاً[4] تنفع في التّذكير والموعظة، ولم يسرد القصص بتمامها مع جميع خصوصيّاتها.

والحكمة في ذلك: أنّ العوامَّ إذا سمعوا قصّة نادرةً غاية النّدرة، أو

---

(١) أي تتغيّر مواقف النّاس عند السّراء والضّراء، وأوضح سبحانه وتعالى ذلك بأمثلة الأمراض النفسانيّة الكثيرة الوقوع ليفهمها جميع النّاس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾ (المعارج ١٩-٢١).

(٢) قرع سمعه: أي وقع في أذنه.

(٣) المراد بأخبار مجازاة الفرس: حروبهم وملاحمهم، كقصص رُسْتُم، وإسكندر، ودارا وغيرها؛ والمراد بأخبار مجازاة الهنود: أيامهم الشهيرة، كحرب (مها بهارت) وغيرها.

(٤) الجماع: مجتمع أصله، يقال: هذا الباب جماع هذه الأبواب، أي الجامع لها، الشامل لما فيها.

ذكِرَت القصّة عندهم بجميع خصوصيّاتها وتفاصيلها، فإنّ طباعهم تميل إلى نفس القصّة، ويفوتهم الغرض الأساسيّ الذي هو التّذكّر.

ومثال ذلك ما قاله بعض العارفين: «إنّ النّاس لمّا حفظوا قواعد التّجويد شُغِلوا عن الخشوع في التّلاوة، ولمّا بدأ المفسّرون يتكلّمون في الوجوه البعيدة في التفسير، أصبح علم التّفسير نادراً كالمعدوم».

القصص المتكرّرة في القرآن:

ومما تكرّر من القصص في القرآن العظيم:

- قصّة خلق آدم من الطّين، وسجود الملائكة له، واستكبار الشّيطان عنه، وكونه ملعوناً، وسعيه بعد ذلك في إضلال بني آدم.

- وقصص محاجّة نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب ـ عليهم الصّلاة والسّلام ـ مع شعوبهم وأقوامهم في توحيد الله تعالى، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، واستكبار الأقوام عن الإيمان، وإدلائهم[١] بشبهات ركيكة، وردود الأنبياء عليها، وابتلاء الأقوام بالعقوبة الإلهيّة، وظهور نصرة الله تعالى في حقّ الأنبياء وأتباعهم.

- وقصص موسى عليه السّلام مع فرعون وملئه، ومع سفهاء بني إسرائيل، ومكابرتهم معه عليه السّلام، وعقاب الله تعالى لأولئك الأشقياء، وظهور نصرة الله تعالى متتالية لِنَجِيِّه عليه السّلام.

- وقصص داود وسليمان عليهما السّلام، وخلافتهما وآياتهما وكراماتهما.

- وقصص محنة[٢] أيّوب ويونس عليهما السّلام، وظهور رحمة الله تعالى لهما.

---

(١) أدلى فلان بحجته: أي أحضرها، واحتجّ بها.

(٢) المحنة: البلاء والشدّة جمع محن.

ـ وقصة دعاء زكريّا عليه السّلام، واستجابة الله تعالى إيّاه.

ـ وقصص سيّدنا عيسى العجيبة: من ولادته من غير أب، وتكلُّمه في المهد، وظهور الخوارق على يده.

فذكرت هذه القصص في القرآن العظيم بأساليب متنوّعة من الإيجاز والإطناب، حسب مقتضى الأساليب المرعية في السّور.

ما ذكر من القصص مرّة أو مرّتين فقط.

وأمّا القصص الّتي لم تتكرر في القرآن، بل وردت في موضع أو موضعين فحسب، فهي:

ـ قصّة رفع سيّدنا إدريس عليه السّلام مكاناً عليًّا[1].

ـ وقصّة محاجّة سيّدنا إبراهيم عليه السّلام لنمرود، ومشاهدته لإحياء الطّير، وقصّة ذبح ولده الوحيد[2].

ـ وقصّة سيّدنا يوسف عليه السّلام.

ـ وقصّة ولادة سيدنا موسى عليه السّلام، وإلقائه في اليّم وقتله القِبْطيّ، وتوجّهه إلى مدين، وتزوّجه هناك، ورؤيته النّار على الشّجرة، وسماع الكلام منها.

ـ وقصّة ذبح البقرة.

ـ وقصّة لقاء موسى مع الخضِر عليهما السّلام.

---

(١) وذلك في سورة مريم ٥٧. والصحيح في معناه: أنّه شرف النّبوة والزلفى عند الله تعالى، وعلو المرتبة بالذكر الجميل في الدنيا، قاله ابن كثير في تاريخه (١:١٠٠) وما روي من رفعه إلى السماء الرابعة فهو من أخبار كعب الأحبار الإسرائيليّات، قاله ابن كثير في تفسيره (٣:١٢٦).

(٢) الوحيد: المنفرد.

ـ وقصّة طالوت وجالوت.

ـ وقصة بلقيس[1].

ـ وقصّة ذي القرنين.

ـ وقصّة أصحاب الكهف.

ـ وقصّة الرجلين المتحاورين.

ـ وقصّة أصحاب الجنّة[2].

وقصّة الرّسل الثلاثة الّذين بعثهم عيسى عليه السّلام لدعوة الدّين، وقصّة المؤمن الّذي قتله الكفّار شهيداً.

ـ وقصّة أصحاب الفيل.

فليس الغرض من سرد هذه القصص في القرآن الكريم معرفتها بأنفسها[3]، بل الغرض الأساسيُّ: هو أن ينتقل ذهن القارئ والسّامع إلى شناعة الشِّرْكِ والمعاصي، ومعاقبة الله تعالى عليها، واطمئنان المؤمنين بنصرة الله تعالى وتأييده، وظهور ألطافه وأفضاله تعالى في حقّ عباده المخلصين.

❖ بيان التّذكير بالموت وما بعده:

وقد ذكر جلّ شأنه من الموت وما بعده: كيفيّة الإنسان عند موته، وعجزه في تلك السّاعة، وعرض الجنّة والنّار عليه بعد الموت، وظهور ملائكة العذاب أمامه، وأشراط السّاعة من نزول سيّدنا عيسى عليه السّلام[4]، وخروج

---

(١) هي ملكة سبأ.

(٢) الجنّة: الحديقة، وقصتّها في سورة القلم(١٧:٣٣)

(٣) أي الاطلاع عليها، والتعرّف على جزئياتها فحسب.

(٤) جاء ذكره في سورة الزخرف ٦١ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾.

الدّجال[1]، وخروج الدّابة من الأرض[2]، وخروج يأجوج ومأجوج، ونفخة الصّعق، ونفخة القيام، والحشر والنّشر، والسؤال والجواب، والميزان، وأخذ صحائف الأعمال بالأيمان والشمائل، ودخول المؤمنين الجنّة، ودخول الكفّار النّار، وتخاصم أهل النّار من التّابعين والمتبوعين فيما بينهم، وإنكار بعضهم على بعض، ولعن بعضهم بعضاً، واختصاص المؤمنين برؤية الله تعالى، وأنواع العذاب من السّلاسل والأغلال والحميم والغسّاق والزّقوم[3]، وأنواع النّعم من الحور والقصور والأنهار، والمطاعم الهنيئة والملابس النّاعمة[4] والنّساء الجميلات، ومجالس أهل الجنّة الفَكِهَة الطّيبة المفرّحة للقلوب.

ففرّق سبحانه وتعالى هذه المطالب في مختلف السّور بالإجمال والتفصيل، مراعياً أساليبها الخاصة.

❖ بيان علم الأحكام:

والقاعدة الكليّة في مباحث الأحكام: أنّ سيّدنا رسول الله ﷺ قد بعث بالملّة الإبراهيميّة الحنيفيّة، فلَزِم إبقاء شرائع تلك الملّة، وأن لا يحدث أيّ

---

(١) ينزل المسيح عليه السلام بعد خروج الدّجال، فيقتله الله تعالى على يديه؛ وليس لخروجه ذكر في القرآن أصرح من هذا.

(٢) جاء ذكرها في سورة النمل ٨٢، وليس في الأصل الفارسي ذكر خروج دابّة الأرض.

(٣) السلاسل جمع السّلسلة: حبل الحديد والأغلال، جمع الغلّ: طوق من حديد أو جلد يجعل في اليد والعنق، والحميم: من الأضداد: الماء الحار والماء البارد؛ والغسّاق: البارد أو المنتن أو ما يسيل من صديد أهل النّار؛ والزّقوم: شجرة ذات شوكة، تنبت في أصل الجحيم.

(٤) الحور جمع الحوراء: البيضاء؛ والقصور جمع القصر: المكان المرتفع؛ والهنيئة: المرغوبة؛ والناعمة: اللينة.

تغيّر في أمّهات مسائلها؛ اللهمّ إلا تخصيصاً لعموماتها، وزيادةً للتوقيتات والتّحديدات فيها؛ وأمثال ذلك.

ولمّا أراد الله سبحانه وتعالى أن يزكّيَ العرب بنبيّنا ﷺ، ويزكّيَ سائر الأقاليم بالعرب لزم أن تتكوّن مادة[1] شريعته ﷺ من رسوم العرب وعاداتهم.[2]

فإذا أمعنت النّظر في مجموع شرائع الملّة الحنيفيّة، ولاحظت عادات العرب ورسومهم، وتأملت في تشريعه ﷺ ـ الّذي هو بمنزلة الإصلاح والتّهذيب لها[3] ـ علمت أنّ لكل حكم سبباً، وفهمت أنّ لكل أمرٍ ونهي مصلحة، وتفصيل ذلك يطول.

دور التّشريع الإسلاميّ في إصلاح الملّة الحنيفيّة المحرّفة:

وبالجملة: فقد كان تطرّق إلى العبادات من الطّهارة والصّلاة والصّوم والزّكاة والحجّ والذّكر فتور عظيم، من جهة التّساهل في إقامتها، واختلاف النّاس فيها بسبب عدم معرفة أكثرها، وتسرّب التّحريفات الجاهليّة إليها، فأصلح القرآن العظيم ذلك الاختلال كلّه، وسوّاها حتّى استقام أمرها.

وأمّا تدبير المنزل [4] فقد كانت حدثت فيه رسوم ضارّة، وأنواع تعدٍّ وعُتُوّ؛ وهكذا اختلّت أحكام السّياسة المدنيّة، فضبط القرآن العظيم لهما أصولاً، وحدّد لهما حدوداً، وذكر من هذا الباب [5] أنواعاً من الكبائر، وكثيراً من الصغائر، لتحترز الأمّة عنها.

---

(١) مادّة الشيء: أصوله وعناصره الّتي منها يتكوّن، حسّية كانت أو معنوية، كمادّة الخشب، ومادة البحث العلمي

(٢) أي ممّا توارثوها من الملّة الحنيفيّة، وانحرفوا عن جادّتها في كثير منها

(٣) أي: لعادات العرب ورسومهم.

(٤) أي الحياة العائليّة

(٥) أي من باب تدبير المنزل والسياسة المدنيّة

وذكر مسائل الصّلاة إجمالاً، واستعمل فيها لفظ «إقامة الصّلاة» ففصّلها رسول الله ﷺ بالأذان وبناء المساجد والجماعة والأوقات، وكذلك ذكر مسائل الزّكاة بالاختصار، وفصّلها رسول الله ﷺ أيّما تفصيل، وذكر الصّوم في سورة البقرة؛ وذكر الحجّ أيضاً فيها وفي سورة الحجّ؛ وذكر الجهاد في سورة البقرة والأنفال وفي مواضع متفرِّقة أخرى؛ وذكر الحدود في المائدة والنّور؛ وذكر المواريث في سورة النّساء؛ وبيّن أحكام النّكاح والطّلاق في سورة البقرة والنّساء والطّلاق وغيرها من السّور.

التعريضات الّتي تحتاج إلى البيان:

وإذا عرفت هذا القسم الّذي تعمُّ فائدته جميع الأمّة[١]، فها هنا قسمٌ آخر، وهو:

ـ أنّه كان يُعْرض عليه ﷺ سؤال، فيجيب عنه[٢].

ـ أو تقع حادثة يجود فيها المؤمنونَ بأنفسهم وأموالهم، ويمسك المنافقون ويتّبعون الهوى، فيمدح الله تعالى المؤمنين، ويذمُّ المنافقين ويتوعّدهم[٣].

ـ أو تقع حادثة من قبيل الغلبة على الأعداء، وكفِّ ضررهم، فيمنُّ الله تعالى بذلك على المؤمنين، ويذكِّرهم بتلك النّعمة[٤].

ـ أو تحدث حالة تحتاج إلى تنبيه أو زجر أو إشارة أو إيماء[٥] أو أمر أو نهي، فيُنزل الله تعالى في ذلك الباب.

---

(١) أي عرفت القسم الذي فيه خطاب عام، ولا يحتاج إلى معرفة شأن نزوله.

(٢) كما سألوا عن الأهلّة، وعن القتال في الأشهر الحرم، وعن الكلالة، فأجيب عنه في القرآن.

(٣) كما وقع ذلك في غزوة تبوك.

(٤) كما وقع ذلك في غزوة الأحزاب.

(٥) الإيماء: هو الإشارة الدقيقة.

فما كان من هذا القبيل فلا بدّ للمفسِّر من ذكر تلك القصص بطريق الإجمال.

أمثلتها:

وقد وردت التّعريضات بقصّة غزوة بدر في سورة الأنفال، وبقصّة غزوة أحد في سورة آل عمرآن، وبقصّة غزوة الخندق في سورة الأحزاب، وبقصّة صُلْح الحُدَيْبيّة في سورة الفتح، وبغزوة بني النّضير في سورة الحشر، وجاء الحثُّ والتّحريض على فتح مكّة وغزوة تبوك في سورة البراءة، ووردت الإشارة إلى حجّة الوداع في سورة المائدة، وجاءت الإشارة إلى قصّة زواج زينب رضي الله عنها في سورة الأحزاب، وإلى تحريم السُّرِّيَّة [١] في سورة التّحريم، وإلى قصّة الإفك في سورة النّور، وجاء ذكر استماع وفد الجنِّ تلاوة النّبيّ ﷺ في سورة الجنّ والأحقاف، وذكرت قصّة مسجد الضِّرار في سورة البراءة، وأشير إلى قصّة الإسراءِ في أوّل سورة بني إسرائيل.

هذه الآيات من التّذكير بأيّام الله:

وهذا القسم من الآيات الكريمة في الحقيقة نوع من أنواع التّذكير بأيّام الله؛ ولكن لَمّا كان حلُّ الإشارات فيها متوقّفاً على سماع القصّة ميّزت عن سائر أقْسامها.

** ** **

(١) السُّرِّيّة والجمع سراري: الأمة الّتي تقام في البيت؛ والأغلب أن اشتقاقها من السّرّ.

الباب الثّاني

في بيان وجوه الخفاء في معاني نظم القرآن بالنّسبة إلى أهل هذا العصر، وإزالة ذلك الخفاء بأوضح بيان

لِيُعلم أنّ القرآن العظيم قد نزل في لغة العرب القُحَّة[1]، المبينة الواضحة، وفَهِم العرب معنى منطوقه بسليقتهم الّتي جبلوا عليها، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾[2] وقال تعالى: ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[3] وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[4].

وكان من مرْضِيِّ الشّارع الحكيم عدم الخوض في تأويل المتشابهات القرآنيّة، وتصوير حقائق الصّفات الإلّهية، وتسمية المبهم، واستقصاء القصص، وما أشبه ذلك؛ ولذلك قلّما كانوا يسألونه ﷺ عن مثل ذلك؛ ولهذا لم يرفع في هذا الباب من الأحاديث إلا شيء قليل.

ولكن لمّا مضت تلك الطّبقة وتدخّل العجم، وتركت تلك اللّغة الأصيلة، واستعصى فهم المراد في بعض المواضع، ومسّت الحاجة إلى تفتيش اللّغة والنّحو، وجرت الأسئلة والأجوبة فيما بين النّاس، وصنّفت كتب التفسير، لزم أن نذكر هذه المواضع الصعبة إجمالاً، ونورد لها أمثلة

(١) القحّة تأنيث القحّ: الخالص الخالي من الشوائب الغريبة.

(٢) سورة الزخرف٢.

(٣) سورة يوسف ٢.

(٤) سورة هود ١.

حتّى لا يحتاج المفسّر عند الخوض فيها إلى زيادة بيان، ولا يضطر إلى المبالغة في الكشف عنها وشرحها.

أسباب صعوبة فهم المراد من الكلام:

فنقول: إنّ عدم الوصول إلى المراد من اللّفظ يكون:

ـ أحياناً بسبب استعمال لفظ غريب؛ وعلاجُه: نقل معنى اللّفظ عن الصّحابة والتّابعين، وسائر أهل المعاني[1].

ـ وأحياناً لقلة الاطلاع على النّاسخ والمنسوخ.

ـ وأحياناً للغفلة عن أسباب النّزول.

ـ وأحياناً بسبب حذف المضاف أو الموصوف أو غيرهما.

ـ وأحياناً لإبدال شيءٍ بشيء، أو إبدال حرف بحرف، أو اسم باسم، أو فعل بفعل، أو لذكر الجمع مكان المفرد، أو بالعكس، أو للالتفات من الخطاب إلى الغيبة.

ـ وأحياناً لتقديم ما حقّه التّأخير أو بالعكس.

ـ وأحياناً بسبب انتشار الضمائر، أو تعدّد المراد من اللّفظة الواحدة.

ـ وأحياناً بسبب التّكرار والإطناب.

ـ وأحياناً بسبب الاختصار والإيجاز.

ـ وأحياناً بسبب استعمال الكناية والتّعريض والمتشابه والمجاز العقليّ.

فينبغي للإخوة السُّعداء أنْ يطّلعوا في مبدأ الكلام[2] على حقيقة هذه الأمور، وعلى شيء من أمثلتها، ويكتفوا بالرّمز والإشارة في مواضع التّفصيل.

---

(١) أهل المعاني: هم الّذين لهم باع طويل وقدم راسخ في بيان معنى اللفظ القرآني، كالزّجاج والفرّاء وغيرهما.

(٢) يعني الكلام في تفسير القرآن الكريم.

الفصل الأوّل

في شرح غريب القرآن

وأحسن الطُّرق في شرح الغريب ما صحَّ عن ترجمان القرآن عبد الله بن عبّاس رضي الله تعالى عنهما[1]، عن طريق ابن أبي طلحة[2]، واعتمد عليها البخاريّ[3] في صحيحه غالباً؛ ثم طريق الضّحاك[4] عن ابن عبّاس، وأجوبة ابن عبّاس عن سؤالات نافع بن الأزرق[5]؛ وقد ذكر السُّيوطي[6] هذه الطُّرق الثلاث في كتابه: «الإتقان في علوم القرآن».[7]

ثمّ ما نقله البخاري من شرح الغريب عن أئمة التّفسير[8]، ثمّ ما رواه سائر المفسّرين عن الصّحابة والتّابعين وأتباعهم رضي الله عنهم من شرح غريب القرآن.

---

(١) هو صحابيّ جليل، حبر هذه الأمّة، ولد بمكّة سنة٣ ق هـ وتوفي بالطائف سنة٦٨هـ.

(٢) هو عليّ بن أبي طلحة سالم بن المخارق الهاشمي ولاءً، ولم يصلنا عن نشأته وحياته شيء.

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري: إمام الدنيا وجبل الحفظ، صاحب الصحيح، ولد سنة ١٩٤هـ وتوفي سنة ٢٥٦هـ.

(٤) هو الضّحاك بن مزاحم الهلالي ولاء، البلخي الخراساني، أبو القاسم: مفسّر، مات سنة ١٠٥ هـ.

(٥) نافع بن الأزرق الحروري: من رؤوس الخوارج، قتل سنة٦٥هـ.

(٦) هو عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، جلال الدين: إمام حافظ، ولد سنة ٨٤٩هـ وتوفي سنة ٩١١هـ، له نحو ٦٠٠ مصنّف.

(٧) كتاب ماتع جامع مطبوع، وضعه السّيوطي كمقدمة لتفسيره، ذكر فيه علوم القرآن في ثمانين نوعاً، وشرح الغريب في النوع ٣٦.

(٨) كمجاهد والحسن وقتادة وغيرهم.

وأرى من المناسب أن أجمع في الباب الخامس من هذه الرّسالة جملة صالحة[1] من شرح غريب القرآن مع بيان أسباب النّزول، وأجعلها رسالة مستقلّة[2]، فمن شاء ضمّها إلى هذه الرّسالة، ومن شاء أفردها على حدة[3].

وللنّاس فيما يعشقون مذاهب.

القدماء ربّما يفسّرون اللّفظ بلازم معناه:

وممّا ينبغي أنْ يعلم هنا: أنّ الصحابة والتّابعين رضي الله عنهم ربّما يفسّرون اللّفظ بلازم معناه؛ وقد يتعقّب المفسّرون المتأخّرون ذلك التّفسير القديم، من جهة تتبع اللّغة، وتفحّص موارد الاستعمال[4].

والغرض المطلوب في هذه الرّسالة:[5] سرد تفسيرات السّلف بعينها، ولنقدها وتنقيحها موضع آخر غير هذا الموضع.

فلكل مقام مقال، ولكلّ نكتة مجال. ●

* * *

(١) أي مقداراً كافياً.

(٢) سمّاها الإمام المصنّف بفتح الخبير بما لا بدّ من حفظه في علم التفسير.

(٣) لم نضمّ «فتح الخبير» مع «الفوز الكبير» في طبعنا هذا، لعدم شموله في مقرّرات الجامعات والمدارس الإسلامية بالهند.

(٤) مع أنّ تعقيبهم غير ملائم.

(٥) يعني «فتح الخبير».

الفصل الثاني

في معرفة النّاسخ والمنسوخ

من المواضع الصّعبة في علم التّفسير الّتي مباحثُها كثيرة، والاختلاف فيها واسع: معرفة النّاسخ والمنسوخ؛ ومِن أقوى وجوه الصّعوبة: اختلاف اصطلاح المتقدّمين والمتأخّرين.

معنى النّسخ عند المتقدّمين:

والّذي وضح لنا باستقراء [1] كلام الصّحابة والتّابعين: أنّهم كانوا يستعملون «النّسخ» في معناه اللغوي، الّذي هو «إزالة شيءٍ بشيء»، لا بمعنى مصطلح الأصوليين [2]، فمعنى النّسخ عندهم: «إزالة بعض أوصاف الآية بآية أخرى» [3] سواء كان ذلك:

- ببيان انتهاء مدّة العمل.
- أو بصرف الكلام عن المعنى المتبادر إلى غير المتبادر.
- أو ببيان كون القيد اتّفاقيًّا.

---

(١) استقرأ الأمور: تتبّعها لمعرفة أحوالها وخواصّها.

(٢) النسخ عند الأصوليين: بيان انتهاء حكم شرعي، بطريق شرعي، متراخ عنه، حتّى لا يجوز امتثاله؛ وبعبارة أخرى: إنّه الخطاب الدّال على ارتفاع الحكم الثابت بالخطاب المتقدّم، على وجه لولاه لكان ثابتاً به، مع تراخيه عنه، ومغزى الحدّين: أنّ المنسوخ لا يبقى حكمه في وجه من الوجوه، ولا يكون له محمل من المحامل، ولا يجوز امتثاله في وقت من الأوقات.

(٣) فالنّسخ عند المتقدّمين مطلق التغيير، الذي يطرأ على بعض الأحكام.

- أو بتخصيص عام.
- أو ببيان الفارق بين المنصوص وبين ما قيس عليه ظاهراً.
- أو بإزالة عادة من العادات الجاهليّة.
- أو برفع شريعة[1] من الشرائع السّابقة.

عدد الآيات المنسوخة عند المتقدّمين:

فاتّسع بابَ النّسخ عندهم، وكثُر جَولان العقل فيه، واتّسعت دائرة الاختلاف لديهم، ولذلك بلغت الآيات المنسوخة عندهم إلى خمس مائة آية؛ بل إذا حققت النظر تجدها غير محصورة[2]؛ وأمّا المنسوخ حسب اصطلاح المتأخّرين فلا يتجاوز العدد القليل، لا سيّما حسب ما اخترناه من التّوجيه.

الآيات المنسوخة عند المتأخّرين:

وقد ذكر الشيخ جلال الدّين السيوطي في «الإتقان» عن بعض العلماء ما ذكرناه آنفاً، بتقرير مبسوط كما ينبغي؛ ثمّ حرّر[3] المنسوخ طبْق رأي المتأخّرين، موافقاً لرأي الشيخ ابن العربي[4] فعدّه قريباً من عشرين آية؛ وللفقير في أكثرها نظر، فلنورد كلامه مع التعقيب.[5]

---

(١) الشّريعة: القانون والحكم من الأحكام.

(٢) إذ لو عُدَّ مثل ذلك في الناسخ والمنسوخ لعدّ جميع القرآن منه؛ إذ كلّه أو أكثره تغيير لما كان عليه المشركون وأهل الكتاب من قبل.

(٣) حرّر الكتاب: حسّنه وأصلحه.

(٤) هو أبو بكر محمد بن عبد الله القاضي المالكي المعروف بابن العربي المعافري الأندلسي، ولد سنة ٤٦٨هـ وتوفي سنة٥٤٣ هـ، وهو غير الشيخ ابن عربي الصوفي.

(٥) عقّب على فلان: بيّن عيوبه وأغلاطه؛ وعقّب الشيء: أتى بشيء بعده.

فمن البقرة :

١ ـ قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ الآية[1] منسوخة، قيل: بآية المواريث[2] وقيل: بحديث: «لا وصيّة لوارث»[3]، وقيل بالإجماع. حكاه ابن العربي.

قلت: بل هي منسوخة بآية: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ وحديث «لا وصية» مبيّن للنسخ.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾[4]، قيل: منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾[5]، وقيل: محكمة، و«لا» مقدّرة[6].

قلت: عندي وجه آخر: وهو أنّ المعنى: وعلى الّذين يطيقون الطّعام[7] فدية؛ هي طعام مسكين؛ فأضمر قبل الذّكْر؛ لأنّه متقدّم رتبة؛ وذكّر الضمير؛ لأن المراد من الفدية هو الطّعام؛ والمراد منه صدقة الفطر؛ عقّب الله تعالى الأمر بالصّيام في هذه الآية بصدقة الفطر، كما عقّب الآية الثانية بتكبيرات العيد.

---

(١) سورة البقرة ١٨٠ وتمام الآية: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

(٢) يعني بقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ الآيات من سورة النّساء ١١ ـ ١٤.

(٣) رواه عشرة من الصحابة، وخرّجه أصحاب السنن غير النسائي عن أبي أمامة، وغير أبي داود عن عمرو بن خارجة، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح (انتهى) وتلقتْه الأئمة بالقبول.

(٤) سورة البقرة ١٨٤.

(٥) سورة البقرة ١٨٥.

(٦) والآية للشيخ الفاني، وضمير (يطيقونه) يرجع إلى الصوم.

(٧) أي يطيقون الإطعام، لكونهم أصحاب نصب بقدرة ممكنة.

٣ـ قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [(١)] ناسخة لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[(٢)]؛ لأنّ مقتضاها[(٣)] الموافقة فيما كان عليهم من تحريم الأكل والوطء بعد النّوم؛ ذكره ابن العربي؛ وحكى قولاً آخر: أنّه نسخ لما كان بالسّنّة[(٤)].

قلت: معنى «كما كتب» التشبيه في نفس الوجوب فلا نسخ، إنّما هو[(٥)] تغيير لما كان عندهم قبل الشّرع؛ ولم نجد دليلاً على أنّ النّبي ﷺ شرع لهم ذلك، ولو سُلِّم فإنما كان ذلك بالسّنّة[(٦)].

٤ـ قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ الآية[(٧)]، منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ الآية[(٨)]، أخرجه ابن جرير عن عطاء بن ميسرة.

---

(١) سورة البقرة ١٨٧.

(٢) سورة البقرة ١٨٣.

(٣) أي مقتضى الآية الثانية.

(٤) أي أنّه نسخ لما كان معمولاً عندهم، وثابتاً بالسنّة.

(٥) يعني قوله تعالى: «أحل لكم» الآية.

(٦) فقوله تعالى: «أحلّ لكم» ناسخ للحكم الذي كان ثابتاً بالسنة، وليس بناسخ لقوله تعالى: «كما كتب».

(٧) سورة البقرة٢١٧ وتمام الآية: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ ۚ﴾ الآية.

(٨) سورة التوبة٣٦ والآية بتمامها: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

قلت: هذه الآية لا تدلّ على تحريم القتال، بل تدلّ على تجويزه، وهي من قبيل تسليم العلّة وإظهار المانع؛ فالمعنى: أنّ القتال في الشّهر الحرام كبير شديد، ولكنّ الفتنة أشدّ منه، فجاز في مقابلتها؛ وهذا التوجيه ظاهر من سياقها، كما لا يخفى.

٥ـ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ ـ إلى قوله ـ مَّتَـٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ﴾ الآية[١] منسوخة بآية: ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾[٢]، والوصية منسوخة بالميراث؛ والسّكنى ثابتة عند قوم، منسوخة عند آخرين بحديث: «ولا سكنى»[٣].

قلت: هي كما قال منسوخة عند جمهور المفسّرين؛ ويمكن أن يقال: يستحبّ أو يجوز للميت الوصيّة، ولا يجب على المرأة أن تسكن في وصيّته؛ وعليه ابن عبّاس؛ وهذا التوجيه ظاهر من الآية.

٦ـ قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ الآية[٤]، منسوخة بقوله بعده: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[٥].

قلت: هو من باب تخصيص العام: بيّنت الآية المتأخّرة أنّ المراد ما في

---

(١) سورة البقرة ٢٤٠ والآية بتمامها: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَـٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

(٢) سورة البقرة ٢٣٤ والآية بتمامها: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

(٣) لم أجد هذا اللفظ في حديث مرفوع، إنّما هو قول عطاء في البخاري (٢:٨٠٤).

(٤) سورة البقرة ٢٨٤.

(٥) سورة البقرة ٢٨٦.

أنفسكم من الإخلاص والنّفاق، لا من أحاديث النّفس الّتي لا اختيار فيها، فإنّ التكليف لا يكون إلا فيما هو في وسع الإنسان.

ومن آل عمران:

٧ ـ قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾[١] قيل: إنّه منسوخة بقوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[٢]، وقيل: لا، بل هو محكم.

وليس فيها آية يصحٌّ فيها دعوى النّسخ غير هذه الآية.

قلت: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ في الشّرك والكفر وما يرجع إلى الاعتقاد، و﴿مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ في الأعمال: من لم يستطع الوضوء يتيمّم، ومن لم يستطع القيام يصلّي قاعداً؛ وهذا التوجيه ظاهر من سياق الآية، وهو قوله: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

ومن النّساء:

٨ ـ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ الآية[٣] منسوخة بقوله: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾[٤].

قلت: ظاهر الآية أنّ الميراث للموالي[٥]، والبرّ والصّلة لمولى الموالاة[٦] فلا نسخ.

---

(١) سورة آل عمران ١٠٢.

(٢) سورة التغابن ١٦.

(٣) سورة النساء ٣٣.

(٤) سورة الأنفال ٧٥ وسورة الأحزاب ٦.

(٥) جمع المولى بمعنى القريب أي: الميراث للأقرباء.

(٦) إذا أسلم رجل على يد رجل، وتعاقدا على أن يرثه ويعقل عنه صح، وهو مولى الموالاة.

٩ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ﴾ الآية[١]، قيل منسوخة[٢]، وقيل: لا، ولكن تهاون النّاس في العمل بها.

قلت: قال ابن عبّاس: هي محكمة، والأمر للاستحباب[٣]، وهذا أظهر.

١٠ـ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ الآية[٤]، منسوخة بآية النّور[٥].

قلت: لا نسخ في ذلك، بل هو ممتدّ إلى الغاية، فلمّا جاءت الغاية بيّن النّبي ﷺ أنّ السبيل الموعود كذا وكذا[٦]، فلا نسخ.

ومن المائدة:

١١ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ الآية[٧]، منسوخة بإباحة القتال فيه.

قلت: لا نجد في القرآن ناسخاً له، ولا في السنة الصحيحة؛ ولكنّ المعنى: أنّ القتال المحرّم يكون في الشّهر الحرام أشد تغليظاً، كما قال النّبيّ ﷺ في الخطبة: «إنّ دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا في

---

(١) سورة النساء ٨ والآية بتمامها: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾.

(٢) أي بآيات المواريث.

(٣) الصحيح للبخاري ص:٣٨٦وص:٦٥٨.

(٤) سورة النساء ١٥ والآية بتمامها: ﴿وَٱلَّتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾.

(٥) أي بآية الجلد، وهي قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ الآية.. سورة النور ٢.

(٦) رواه مسلم، كتاب الحدود، رقم الحديث ١٦٩٠.

(٧) سورة المائدة ٢ وتمام الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾.

شهركم هذا، في بلدكم هذا»[1].

١٢ ـ قوله تعالى: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ الآية[2] منسوخة بقوله: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾[3].

قلت: معناه: إنْ اخترت الحكم فاحكم بما أنزل الله، ولا تتّبع أهواءَهم؛ فالحاصل: أنّه لنا أن نترك أهل الذّمة أن يرفعوا القضية إلى زعمائهم، فيحكموا بما عندهم، ولنا أن نحكم بما أنزل الله علينا.

١٣ـ قوله تعالى: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾[4] منسوخ بقوله: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾[5].

قلت: قال أحمد بظاهر الآية[6]، ومعناها عند غيره: أو آخران من غير أقاربكم، فيكونان من سائر المسلمين.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (١:٢٣٤)

(٢) سورة المائدة ٤٢ وتمام الآية: ﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

(٣) سورة المائدة ٤٩ وتمام الآية: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ﴾.

(٤) سورة المائدة ١٠٦ والآية بتمامها: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ﴾.

(٥) سورة الطلاق ٢ والآية بتمامها: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾.

(٦) أي يجوز عند أحمد رحمه الله في أرض الغربة إذا لم يجد مسلمين أن يشهد كافرين.

ومن الأنفال:

١٤ـ قوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ﴾ الآية[١]، منسوخة بالآية بعدها[٢].

قلت: هي كما قال منسوخة.

ومن البراءة:

١٥ـ قوله تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾[٣] منسوخة بآيات العذر، وهي قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ الآية[٤]، وقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ﴾ الآيتين[٥]، وبقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾[٦].

قلت: ﴿**خفافاً**﴾ أي مع أقلّ ما يتأتّى به الجهاد من مركوبٍ وعبد للخدمة، ونفقة يقنع بها؛ و﴿**ثقالاً**﴾ أي مع الخدم الكثيرين والمراكب الكثيرة، فلا نسخ؛ أو نقول: ليس النسخ متعيناً[٧].

---

(١) سورة الأنفال ٦٥ وتمام الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾.

(٢) وهي قوله تعالى: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ سورة الأنفال ٦٦.

(٣) سورة البراءة ٤١ وتمام الآية: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

(٤) سورة الفتح ٧.

(٥) سورة التوبة ٩١ و٩٢.

(٦) سورة التوبة ١٢٢.

(٧) بل يجب عليه العمل عند هجوم العدو.

ومن النّور :

١٦ـ قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ الآية[1]، منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾[2].

قلت: قال أحمد بظاهر الآية؛ ومعناها عند غيره: أنّ مرتكب الكبيرة [3] ليس بكفءٍ إلا للزانية؛ أو لا يستحبّ له[4] اختيار الزانية؛ وقوله: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الزنى والشّرك، فلا نسخ، وأما قوله: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ﴾ فعامٌّ، لا ينسخ الخاصّ.

١٧ـ قوله تعالى: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ الآية[5]، قيل منسوخة، وقيل: لا، ولكن تهاون النّاس في العمل بها.

قلت: مذهب ابن عبّاس رضي الله عنه: أنّها ليست بمنسوخة؛ وهذا أوجه وأولى بالاعتماد.

---

(١) سورة النور ٣ والآية بتمامها: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

(٢) سورة النور ٣٢ والآية بتمامها: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

(٣) يعني الوقاح والزّنى.

(٤) أي للمسلم العفيف.

(٥) سورة النّور ٥٨ والآية بتمامها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

ومن الأحزاب :

١٨ـ قوله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ الآية[١]، منسوخة بقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ الآية[٢].

قلت: يحتمل أن يكون الناسخ مقدّماً في التلاوة، وهو الأظهر عندي.

ومن المجادلة :

١٩ـ قوله تعالى: ﴿إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟﴾ الآية[٣]، منسوخة بالآية بعدها[٤].

قلت: هذا كما قال.

ومن الممتحنة :

٢٠ـ قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ۚ﴾[٥] قيل:

---

(١) سورة الأحزاب ٥٢ وتمام الآية: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾.

(٢) سورة الأحزاب ٥٠ وتمام الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

(٣) سورة المجادلة ١٢ والآية بتمامها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

(٤) وهي قوله تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ المجادلة ١٣.

(٥) سورة الممتحنة ١١ وتمام الآية: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾.

منسوخ بآية السّيف[1]، وقيل: بآية الغنيمة[2]، وقيل: محكم.

قلت: الأظهر أنّها محكمة، ولكنّ الحكم في المهادنة[3]، وعند قوّة الكفّار.

ومن المزّمّل:

٢١ـ قوله تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[4] منسوخ بآخر السّورة[5]، ثمّ نسخ الآخر بالصّلوات الخمس.

قلت: دعوى النّسخ بالصّلوات الخمس غير متّجهة[6]، بل الحقّ: أنّ أول السورة في تأكيد النّدب إلى قيام اللّيل، وآخرها في نسخ التّأكيد إلى مجرد النّدب.

قال السّيوطي موافقاً لابن العربي: فهذه إحدى وعشرون آية منسوخة، على خلاف في بعضها؛ ولا يصحّ دعوى النّسخ في غيرها؛ والأصحّ في آيتي الاستئذان والقسمة[7] الإحكام وعدم النّسخ، فصارت تسع عشرة آية؛ وعلى ما حرّرنا لا يتعيّن النّسخ إلا في خمس آيات[8].

---

(١) يعني بآية السّيف قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ﴾ التوبة ٣٦.

(٢) يعني بآية الغنيمة قوله تعالى: ﴿۞وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ الآية.. الأنفال ٤١.

(٣) المهادنة: المصالحة، هادنه مهادنة: صالحه ووادعه.

(٤) سورة المزّمّل ٢.

(٥) أي بقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ المزمل ٢٠.

(٦) غير متّجهة: أي غير موجّهة.

(٧) آية الاستئذان هي الآية السابعة عشرة؛ وآية القسمة هي الآية التاسعة.

(٨) وهي الآية الأولى، والخامسة، والرابعة عشرة، والثامنة عشرة، والتاسعة عشرة.

الفصل الثالث

في معرفة أسباب النزول

ومن المواضع الصّعبة أيضاً معرفة أسباب النّزول؛ ووجه الصّعوبة أيضاً اختلاف اصطلاح المتقدّمين والمتأخّرين.

معنى: «نزَلَت في كذا» عند المتقدّمين:

والّذي يظهر من استقراء كلام الصّحابة والتّابعين رضي الله عنهم: أنّهم كانوا لا يستعملون: «نزلت في كذا» لمجرد بيان الحادث الّذي وقع في زمنه ﷺ، وكان سبباً لنزول الآية؛ بل:

ربّما يذكرون بعض ما صدقت عليه الآية، ممّا حدث في زمنه ﷺ، أو حدث بعده ﷺ، فيقولون: «نزلت في كذا»؛ ولا يلزم في هذه الصّورة انطباق جميع القيود المذكورة في الآية، بل يكفي انطباق أصل الحكم فحسب.

وقد يبيّنون سؤالاً سُئل عنه رسول الله ﷺ، أو حادثة حدثت في عهد النّبي ﷺ، واستنبط ﷺ حكمها من الآية، وتلاها عليهم في ذلك الباب، فيقولون: «نزلت في كذا»؛ وربّما يقولون في هذه الصُّور «فأنزل الله تعالى قوله كذا» أو «فنزلت».

وكأنّه إشارة إلى أنّ استنباطه ﷺ ذلك الحكم من الآية، وإلقاءَها في تلك السّاعة في خاطره المبارك أيضاً نوع من الوحي والنَّفْث في الرّوعِ، فلذلك يمكن أن يقال: «فأنزلت»؛ ولو عبّر أحد عن ذلك بتكرار نزول الآية لكان له مساغ أيضاً.

روايات المحدّثين الّتي لا علاقة لها بأسباب النّزول:

ويذكرُ المحدّثون تحت آيات القرآن الكريم كثيراً من الأشياء، ليست هي في الحقيقة من قسم سبب النزول، مثل: استشهاد الصّحابة رضي الله عنهم في مناظراتهم[(١)] بآية، أو تمثّلهم بها[(٢)]، أو تلاوته ﷺ آية للاستشهاد في كلامه الشريف، أو رواية حديث يوافق الآية في أصل الغرض، أو تعيين موضع النّزول، أو تعيين أسماء المذكورين في الآية بطريق الإبهام، أو بيان طريق التّلفظ بكلمة قرآنيّة، أو فضل سور وآيات من القرآن، أو بيان طريقة امتثاله ﷺ بأمر من أوامر القرآن الكريم؛ فليس شيءٌ من هذا في الحقيقة من أسباب النزول، وليس من شروط المفسّر الإحاطة بها.

شرط المفسّر في باب أسباب النّزول:

إنّما شرط المفسّر معرفة أمرين:

الأوّل: معرفة تلك القصص الّتي تعرض[(٣)] الآيات لها؛ فإنّه لا يتيسّر فهم إيماء الآيات إلا بمعرفتها.

والثاني: معرفة تلك القصص الّتي تخصّص العامّ، أو نحو ذلك من وجوه صرف الكلام عن الظاهر؛ فإنّه لا يتأتى فهم المقصود من الآيات بدونها.

قصص الأنبياء من روايات أهل الكتاب:

وممّا ينبغي أن يعلم هنا: أنّ قصص الأنبياء السّابقين لم تذكر في الأحاديث إلا قليلاً؛ فالقصص الطويلة العريضة الّتي يتجشّم[(٤)] المفسّرون

---

(١) المناظرة: المباحثة العلمية.

(٢) تمثل بالشيء: ضربه مثلاً.

(٣) عرّض له بالقول: قال قولاً وهو يعنيه ويريده، ولكن لم يصرّح به ولم يبيّنه.

(٤) تجشّم الأمر: تكلّفه على مشقة.

روايتها، كلّها منقولة عن علماء أهل الكتاب إلا ما شاء الله تعالى[1]، وقد جاء في صحيح البخاري مرفوعاً: «لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذّبوهم»[2].

معنى آخر لقولهم: «نزلت في كذا»:

وليُعلم أيضاً أنّ الصّحابة والتّابعين رضي الله عنهم كانوا يذكرون قصصاً جزئية لبيان مذاهب المشركين واليهود، وعاداتهم الجاهليّة، لتتّضح بها عقائدهم وتقاليدهم، ويقولون: «نزلت الآية في كذا»، ويريدون بذلك: أنّها نزلت في مثل هذه، سواء كانت تلك بعينها، أو ما شابهها، أو ما قاربها، ويقصدون إظهار تلك الصّورة، لا خصوص القصص، بل يذكرونها لأجل أنّ هذه صورةٌ صادقة لتلك الأمور الكلّية؛ ولهذا تختلف أقوالهم في كثير من المواضع، وكلٌّ يجرُّ الكلام إلى جانبه، وقصدهم في الحقيقة واحد؛ وإلى هذه النّكتة أشار أبو الدّرداء رضي الله عنه حيث قال: «لا يكون الرّجل فقيهاً حتّى يحمل الآية الواحدة على محامل متعدّدة»[3].

صورةُ قصّة ولا قصّة لها:

وعلى هذا الأسلوب كثيراً ما يُذْكرُ في القرآن العظيم صورتان: صورة سعيد، ويُذْكر فيها بعض أوصاف السّعادة؛ وصورة شقيٍّ، ويذكر فيها بعض أوصاف الشّقاوة؛ ويكون الغرض من ذلك: بيان أحكام تلك الأوصاف والأعمال، لا التّعريض بشخص معيّن، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ﴾[4]، ثمّ ذكر صورتين: صورة سعيد

---

(١) كقصّة موسى والخضر عليهما السّلام المروية في «صحيح البخاري».

(٢) البخاري في كتاب التفسير ص ٦٤٤ و١٠٩٣.

(٣) أخرجه ابن سعد وغيره.

(٤) سورة الأحقاف ١٥.

وصورة شقي؛ وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا﴾.[2]

وعلى مثل هذا تحمل قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾[3] وقوله تعالى: ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ الآية[4]، وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾.[6]

ولا يلزم في هذه الصّور أن تتوفّر تلك الخصوصيّات بعينها في شخص، كما لا يلزم في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾[7] أن توجد حبّة بهذه الصّفة؛ إنّما المقصود: تصوير زيادة الأجر لا غير؛ فإن وجدت صورة توافق ذلك في أكثر الخصوصيّات، أو في كلّها، كان ذلك من قبيل: «لزوم ما لم يلتزم»[8].

قد يفرضون السؤال والجواب في التّفسير:

وفي بعض الأحيان يُرَدّ في القرآن على شبهة ظاهرة الورود، أو يجاب عن سؤال مطويّ مفهوم بسهولة، لقصد إيضاح الكلام السّابق، لا لأجل أنّ

---

(١) سورة النحل ٢٤.

(٢) سورة النحل ٣٠.

(٣) سورة النحل ١١٢.

(٤) سورة الأعراف ١٨٩.

(٥) سورة المؤمنون ١ و٢.

(٦) سورة القلم ١٠.

(٧) سورة البقرة ٢٦١.

(٨) التزم الشيء: أوجبه على نفسه، ولزم الشيء: ثبت ودام.

أحداً وجّه هذا السؤال بعينه، أو أورد هذه الشّبهة بعينها؛ وكثيراً ما يفترض[1] الصّحابة رضي الله عنهم في تقرير ذلك المقام سؤالاً، ويشرحون الكلام في صورة السّؤال والجواب؛ ولكن لو نظرنا بإمعان النّظر فالكل كلام واحد منسّق، لا يحتمل نزول بعض عقيب بعض، وجملة واحدة منتظمة[2] لا تفكّ قيودها على أصل من الأصول.

قد يريدون التّقدم والتّأخر الرُّتبيَّ لا الزَّماني:

وقد يذكر الصّحابة رضي الله عنهم التّقدم والتّأخر، ويريدون بذلك: التّقدم والتّأخر الرّتبيّ، لا الزّمانيّ، كما قال ابن عمر رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾[3]: «إنّما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة، فلمّا أنزلت جعلها الله طهراً للأموال»[4]؛ ومن المعلوم أنّ سورة البراءة آخر سورة نزلت، وهذه الآية في تضاعيف القصص المتأخرة، وقد كانت فرضيّة الزكاة متقدّمة عليها بأعوام؛ ولكنّ مراد ابن عمر رضي الله عنهما: تقدّم الإجمال على التفصيل بالرتبة.

شرط المفسّر أمران:

وبالجملة: فالّذي يشترط على المفسّر في هذا الباب لا يزيد على أمرين:

الأوّل: معرفة قصص الغزوات وغيرها، ممّا وقع في الآيات الإيماء إلى خصوصيّاتها، فما لم تعلم تلك القصص لا يتأتّى فهم حقيقتها.

---

(١) افترض الباحث: اتّخذ فرضا ليصل إلى حلّ مسألة.

(٢) انتظم الشيء: تألّف واتّسق.

(٣) سورة التوبة ٣٤.

(٤) رواه البخاري في كتاب الزكاة وفي كتاب التفسير رقم الحديث ١٤٠٤و٤٦٦١.

والثاني: الاطلاع على فوائد بعض القيود؛ وكذا أسباب التّشديد في بعض المواضع، تتوقّف معرفتها على أسباب النّزول.

فنّ التوجيه:

وهذا المبحث الأخير[1] في الحقيقة فنّ من فنون التوجيه؛ ومعنى التوجيه: بيان وجه الكلام؛ وحاصل هذه الكلمة أنّه:

قد تقع في الآية شبهة ظاهرة، لاستبعاد الصّورة الّتي هي مدلول الآية، أو للتّناقض بين الآيتين.

أو يصعب فهم مدلول الآية على ذهن المبتدئ.

أو لا تستقرّ في ذهنه فائدة قيد من القيود.

فإذا قام المفسّر بحلّ هذه الإشكالات سمّي ذلك توجيهاً.

أمثلة التوجيه:

١ـ كما في آية: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾[2] فقد سألوا: أنّ المدّة بين موسى وعيسى عليهما السّلام طويلة، فكيف يكون هارون أخاً لمريم؟ كأنّ السائل أضمر في خاطره: أنّ هارون هذا هو هارون أخو موسى عليهما السّلام؛ فأجاب ﷺ بأنّ بني إسرائيل كانوا يُسمُّون بأسماء الصّالحين قبلهم.[3]

٢ـ وكما سألوا: كيف يمشي الإنسان يوم الحشر على وجهه؟ فقال: «إنّ الّذي أمشاه في الدّنيا على رجليه لقادر على أن يمشيه على وجهه».[4]

---

(١) يعني مبحث ما يحتاج إليه المفسّر.

(٢) سورة مريم ٢٨.

(٣) رواه الترمذي (٢:١٤٤) في أبوب التفسير، في تفسير سورة مريم.

(٤) رواه البخاري برقم (٤٤٨٢)، ومسلم برقم(٢٨٠٦).

٣ـ وكما سألوا ابن عبّاس رضي الله عنهما عن وجه التطبيق بين قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾[1]، وبين آية أخرى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾[2]، فقال رضي الله عنه: عدم التّساؤل يوم الحشر، والتّساؤل بعد دخول الجنّة.[3]

٤ـ وكما سألوا عائشة رضي الله عنها، فقالوا: إنْ كان السّعي بين الصّفا والمروة واجباً، فلماذا قال الله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ الآية[4]؟ فأجابت رضي الله عنها: بأنّ قوماً كانوا يتجنّبونه ويتحرّجون منه، فلذلك قال الله تعالى: ﴿**لا جناح**﴾[5].

٥ـ وكما سأل عمر رضي الله عنه رسول الله ﷺ: ما معنى قيد ﴿**إنْ خفتم**﴾[6]؟ فقال ﷺ: «صدقة تصدّق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته»[7]، أي أنّ الكرماء لا يضايقون في الصّدقة، فكذلك لم يذكر الله سبحانه وتعالى هذا القيد للتّضييق، بل القيد اتّفاقي.

وأمثلة التّوجيه كثيرة، والغرض هنا التّنبيه على معناه.

يذكر أسباب النزول وتوجيه المشكل في فتح الخبير لفائدتين:

وأرى من المناسب أن أذكر في الباب الخامس ما نقل البخاري والترمذيّ والحاكم في تفاسيرهم من أسباب النّزول وتوجيه المُشكِل، بسند جيّد إلى

---

(١) سورة المؤمنون ١٠١.

(٢) سورة الصّافات ٢٧.

(٣) أخرجه الحاكم وابن جرير كما في الدّر المنثور(٥:١٥) .

(٤) سورة البقرة ١٥٨.

(٥) رواه مسلم (فتح الملهم ٣:٣٢٤) .

(٦) سورة النساء ١٠١.

(٧) رواه مسلم (فتح الملهم٢:٢٥٠) .

الصّحابة رضي الله عنهم، أو إلى رسول الله ﷺ مع التنقيح والاختصار لفائدتين:

الأولى: أن استحضار هذا القدر من الآثار لا بدّ منه للمفسّر، كما لا بدّ له من حفظ القدر الّذي ذكرناه في ذلك الباب من شرح غريب القرآن.

والثانية: أنْ يعلم أنّه لا دخل لأكثر ما يروى من أسباب النّزول في فهم معاني الآيات الكريمة، اللّهمّ إلا شيء قليل من القصص الّتي ذكرت في هذه التفاسير الثلاثة الّتي هي أصحُّ التفاسير عند المحدّثين.

إفراط ابن إسحاق والواقدي والكلبيّ:

وأمّا إفراط محمّد بن إسحاق[1] والواقدي[2] والكلبي[3] وما ذكروا تحت كلّ آية من قصّة، فأكثره غير صحيح عند المحدّثين، وفي إسناده نظر[4]؛ ومن الخطأ البيّن: أن يعدّ ذلك من شروط التفسير؛ ومن يرى أنّ تدبّر كتاب الله يتوقّف على الإحاطة بها، فقد فات حظّه من كتاب الله، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلّت وهو ربّ العرش العظيم. •

* * *

---

(١) هو محمد بن إسحاق المطّلبي المدني: من أقدم مؤرّخي العرب، توفي سنة ١٥١هـ.

(٢) هو محمد بن عمر الواقدي المدني: من أقدم مؤرخي الإسلام وأشهرهم، ولد سنة ١٣٠ هـ وتوفي ببغداد سنة ٢٠٧هـ.

(٣) هو محمد بن السّائب الكلبي: نسّابة، راوية، عالم بالتفسير والأخبار وأيام العرب، توفي بالكوفة سنة ١٤٦هـ.

(٤) الضمير في قوله: «أكثره» وكذا في: «إسناده» يرجعان إلى كلمة «ما» في قوله «ما ذكروا».

الفصل الرابع

في بقية مباحث هذا الباب

ممّا يوجب الخفاء: حذف بعض الأجزاء، أو أدوات الكلام، وإبدال شيء بشيء، وتقديم ما حقّه التأخير، وتأخير ما حقّه التقديم، واستعمال المتشابهات والتعريضات والكنايات، لا سيّما تصوير المعنى المراد بالصّورة المحسوسة الّتي تكون من لوازم ذلك المعنى عادة[1]، واستعمال الاستعارة المكنيّة، والمجاز العقلي؛ فلنذكر شيئاً من الأمثلة لهذه الأشياء باختصار، لتكون على بصيرة.

بيان الحذف

أمّا الحذف فعلى أقسام: حذف المضاف والموصوف والمتعلّق وغير ذلك، مثل:

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ﴾[2] أي: برُّ من آمن.

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾[3] أي: آية مبصرة، لا أنّها مبصرة، غير عمياء.

وقوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾[4] أي حبّ العجل.

وقوله تعالى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾[5] أي: بغير قتل نفس.

---

(١) وهذا أيضاً من باب الكنايات.

(٢) البقرة ١١٧، وفيه حذف المضاف.

(٣) سورة بني إسرائيل ٥٩ وفيه حذف الموصوف.

(٤) سورة البقرة ٩٣ وفيه حذف المضاف.

(٥) سورة الكهف ٧٤ وفيه حذف المضاف.

وقوله تعالى: ﴿أَوۡ فَسَادٖ﴾[1] أي: بغير فساد.

وقوله تعالى: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[2] أي: من في السّماوات ومن في الأرض؛ لا أنّ شيئاً واحداً هو في السّماوات والأرض.

وقوله تعالى: ﴿ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ﴾[3] أي: ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات.

وقوله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾[4] أي: أهل القرية.

وقوله تعالى: ﴿بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا﴾[5] أي:فعلوا مكان شكر نعمة الله كفراً.

وقوله تعالى: ﴿يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾[6] أي: للخصلة الّتي هي أقوم.

وقوله تعالى: ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[7] أي: بالخصلة التي هي أحسن.

وقوله تعالى: ﴿سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾[8] أي: الكلمة الحسنى والعِدَةُ الحسنى[9].

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ﴾[10] أي: على عهد ملك سليمان.

---

(١) سورة المائدة ٣٢ وفيه حذف المضاف، وهو الجار والمجرور.

(٢) جاء في التنزيل في تسعة مواضع، كما في سورة الرحمن٢٩ وفيه حذف الموصول.

(٣) سورة بني إسرائيل ٧٥ وفيه حذف المضاف.

(٤) سورة يوسف ٨٢ وفيه حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه.

(٥) سورة إبراهيم ٢٨ وفيه حذف المضاف والمضاف إليه معاً.

(٦) سورة بني إسرائيل٩ وفيه حذف الموصوف.

(٧) سورة فصّلت ٣٤ وفيه حذف الموصوف.

(٨) سورة الأنبياء ١٠١ وفيه حذف الموصوف

(٩) العدة مصدر وعد.

(١٠) سورة البقرة ١٠٢ وفيه حذف المضاف الأول.

وقوله تعالى: ﴿وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾[1] أي: على ألسنة رسلك.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾[2] أي: أنزلنا القرآن، وإنْ لم يسبق له ذكر.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾[3] أي: توارت الشّمس.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾[4] أي: خصلة الصّبر.

وقوله تعالى: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[5] ـ فيمن قرأ بالنّصب ـ أي: جعل منهم من عبد الطّاغوت.

وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾[6] أي: جعل له نسباً وصهراً.

وقوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾[7] أي: من قومه.

وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ﴾[8] أي كفروا نعمة ربّهم، أو: كفروا بربّهم، بنزع الخافض.

وقوله تعالى: ﴿تَفْتَؤُا۟﴾[9] أي: لا تفتؤ، ومعناه: لا تزال.

وقوله تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[10] أي يقولون: ما نعبدهم.

---

(١) سورة آل عمرآن ١٩٤ وفيه أيضاً حذف المضاف الأول.

(٢) سورة القدر ١ وفيه حذف مرجع الضمير.

(٣) سورة ص ٣٢ وفيه حذف مرجع الضمير.

(٤) سورة فصّلت ٣٥ وفيه حذف مرجع الضمير.

(٥) سورة المائدة ٦٠ وفيه حذف الموصول.

(٦) سورة الفرقان ٥٤ وفيه حذف الجار ثم إيصال الفعل إلى المجرور.

(٧) سورة الأعراف ١٥٥ وفيه أيضاً حذف الجار، ثم الإيصال.

(٨) سورة هود ٦٠ وفيه إما حذف المضاف الأول، وإما حذف الجار، ثم الإيصال.

(٩) سورة يوسف ٨٥ وفيه حذف الحرف.

(١٠) سورة الزمر ٣ وفيه حذف القول.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ﴾[1] أي: الّذين اتّخذوا العجل إلهاً.

وقوله تعالى: ﴿تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾[2] أي: وعن الشمال.

وقوله تعالى: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾[3] أي: تقولون: إنّا لمغرمون.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً﴾[4] أي: بدلاً منكم.

وقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾[5] أي: امض.

حذف خبر «إنّ» والجزاء والمفعول والمبتدأ وما شابهها مُطَّرِد:

وليعلم أنّ حذف خبر «إنّ» أو حذف جزاء الشّرط، أو مفعول الفعل، أو مبتدأ الجملة، وما أشبه ذلك مطّرد[6] في القرآن الكريم إذا كان فيما بعده دلالة على حذفه، نحو:

قوله تعالى: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[7] أي: لو شاء هدايتكم لهداكم.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾[8] أي: هذا الحقّ من ربّك.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ﴾ أي: لا يستوي من أنفق من قبل الفتح ومن

---

(١) سورة الأعراف ١٥٢ وفيه حذف المفعول الثاني.

(٢) سورة الصافات ٢٨ وفيه حذف بعض أجزاء الجملة.

(٣) سورة الواقعة ٦٥ و٦٦ وفيه حذف القول.

(٤) سورة الزخرف ٦٠ وفيه حذف المضاف.

(٥) سورة الأنفال ٥ وفيه حذف الفعل.

(٦) مطّرد: أي عام لا شذوذ فيه.

(٧) سورة الأنعام ١٤٩ وفيه حذف المفعول.

(٨) سورة البقرة ١٤٧ وفيه حذف المبتدأ.

أنفق من بعد الفتح، فحذف الثاني لدلالة قوله: ﴿أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾[2] أي: إذا قيل لهم: اتّقوا ما بين أيديكم وما خلفكم أعرضوا.

لا حاجة إلى تفتيش العامل في كلمة «إذْ»:

وليُعْلم أيضاً: أنّ الأصل في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾[4] أن تكون كلمة «إذ» ظرفاً لفعل من الأفعال، ولكنّها نقلت ها هنا إلى معنى التخويف والتّهويل، كمثل الّذي يذكر المواضع الهائلة، أو الوقائع العظيمة على سبيل التّعداد، من دون تركيب للجُمل، ومن غير وقوع الكلمات في حيّز الإعراب؛ بل المقصود ذكرها بأعينها، حتّى ترتسم صورتها في ذهن المخاطب، ويستولي الخوف منها على قلبه.

فالتحقيق: أنّه لا يلزم في أمثال هذه المواضع تفتيش العامل، والله أعلم.

---

(١) سورة الحديد ١٠ وفيه حذف بعض أجزاء الجملة؛ والآية بتمامها: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

(٢) سورة يس ٤٥ و٤٦ وفيه حذف جزاء الشرط.

(٣) سورة البقرة ٣٠.

(٤) سورة البقرة ٥٤.

حذف الجارّ من «أنّ» مطّرِد:

وليُعْلم أيضاً: أنَّ حذف الجار من «أنّ» المصدريّة مطّرد في كلام العـرب؛ والمعنى: لأن أو: بأن.

حذف جواب «لو» الشّرطية:

وليُعْلم أيضاً: أنّ الأصل في مثل قوله تعـالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾[2]: أن يكون جواب الشّرط محذوفاً، إلا أنّهم نقلوا هذا التركيب إلى معنى التّعجب، فلا حاجة إلى تفتيش المحذوف، والله أعلم.

بيـان الإبـدال

أمّا الإبدال فإنّه تصرف كثير الفنون:

إبدال فعل بفعل:

قد يذكر سبحانه وتعـالى فعـلاً مكـان فعـل، لأغـراض شـتّى، ولـيس استقصاء تلك الأغراض من وظيفة هذا الكتاب، نحو:

قوله تعالى: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾[3] أي: يسبّ آلهتكم؛ وكان أصل الكلام: أهذا الّذي يسبّ، ولكن كَره ذكر السّب، فأبدل بالذكر.

ومن هذا القبيل ما يقال في العرف[4]: «أصيب أعداء فلان بمـرض» أو:

---

(١) سورة الأنعام ٩٣.

(٢) سورة البقرة ١٦٥.

(٣) سورة الأنبياء ٣٦.

(٤) عند مخاطبتهم سـادتهم أو مكـرميهم، أي ينسـبون الأمـر إلى مـا يلابسـهم أو إلى متعلّقيهم.

«شرفنا بالمجيء عبيد الحضرة» أو: «عبيد الجناب العالي مطّلعون على هذه المقدّمة»[1]؛ والمراد: قد مرض فلان، وقدم سعادة فلان، واطّلع سموّ فلان.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾[2] أي منّا لا ينصرون؛ لما كانت النّصرة لا تتصوّر بدون الاجتماع والصّحبة، أبدل «ينصرون» بـ«يصحبون».

وقوله تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[3] أي: خفيت؛ لأنّ الشيء إذا خفي علمه ثقل على أهل السّماوات والأرض.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾[4] أي: عفون لكم عن شيء من طيبة أنفسهن.

إبدال اسم باسم:

وقد يذكر سبحانه وتعالى اسماً مكان اسم، نحو:

قوله تعالى: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾[5] أي: خاضعة.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾[6] أي: من القانتات.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[7] أي: من ناصر.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾[8] أي: حاجزاً.

---

(١) هذه كلّها تعبيرات فارسيّة، كانوا يتكلّمون بها أو بمثلها عند سادتهم وكبرائهم.
(٢) سورة الأنبياء ٤٣.
(٣) سورة الأعراف ١٨٧.
(٤) سورة النساء ٤.
(٥) سورة الشعراء ٤.
(٦) سورة التحريم ١٢.
(٧) سورة آل عمران ٢٢.
(٨) سورة الحاقّة ٤٧.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾[1] أي: أفراد بني آدم؛ أفرد اللفظ؛ لأنّه اسم جنس.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا﴾[2] المعنى: «يا بني آدم إنّكم»؛ أفرد اللفظ؛ لأنه اسم جنس.

وقوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ﴾[3] يعني أفراد الإنسان.

وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾[4] أي: نوحاً وحده.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ﴾[5] أي: إنّي فتحت لك.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾[6] أي: إني لقادر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ﴾[7] أي: يسلّط محمداً ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾[8] أي: عروة الثّقفيّ وحده.

وقوله تعالى: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ﴾[9] أي: طعم الجوع؛ أبدل الطعم باللّباس إيذاناً بانّ الجوع له أثر من النّحول والذّبول ما يعمّ البدن كلّه، ويشمله كاللّباس.

---

(١) سورة العصر ١و٢.

(٢) سورة الانشقاق ٦.

(٣) سورة الأحزاب ٧٢.

(٤) سورة الشعراء ١٠٥.

(٥) سورة الفتح ١.

(٦) سورة المعارج ٤٠.

(٧) سورة الحشر٦.

(٨) سورة آل عمران ١٧٣.

(٩) سورة النحل ١١٢.

وقوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾[1] أي: دين الله؛ أبدل بالصّبغة إيذانا بأنّه كالصّبغ تتلوّن به النّفس؛ أو مشاكلة بقول النّصارى في المعموديّة[2].

وقوله تعالى: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾[3] أي: طور سيناء.

وقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾[4] أي: على إلياس؛ قلب الاسمان للازدواج.

إبدال حرف بحرف:

وقد يذكر سبحانه وتعالى حرفاً مكان حرف، نحو:

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾[5] أي: على الجبل، كما تجلّى في المرّة الأولى على الشّجرة.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾[6] أي: إليها سابقون.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾[7] أي: لكن من ظلم؛ فهو استئناف.

وقوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾[8] أي: على جذوع النّخل.

---

(١) سورة البقرة ١٣٨.

(٢) كان النصارى يصبغون أولادهم بماء أصفر، يسمّونه المعمودية، يزعمون أنّه الماء الذي ولد فيه عيسى عليه السلام، ويعتقدون أنّه تطهير للمولود؛ واللفظ سرياني الأصل، أو مولّد مأخوذ من العمد بمعنى البلل.

(٣) سورة التين ٢.

(٤) سورة الصافات ١٣٠ والازدواج من ازدوج الكلام: أشبه بعضه بعضاً في السّجع أو الوزن.

(٥) سورة الأعراف ١٤٣.

(٦) سورة المؤمنون ٦١.

(٧) سورة النمل ١٠و١١.

(٨) سورة طه ٧١.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾[1] أي: يستمعون عليه.

وقوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾[2] أي منفطر فيه.

وقوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾[3] أي: عنه.

وقوله تعالى: ﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾[4] أي:حملته العزّة على الإثم.

وقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾[5] أي: فاسأل عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾[6] أي: مع أموالكم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾[7] أي: مع المرافق.

وقوله تعالى: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾[8] أي: يشرب منها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾[9] أي: أن قالوا.

إبدال جملة بجملة:

وقد يورد جملة مكان جملة، مثلاً: إذا دلّت جملة على حاصل مضمون جملة أخرى، وسبب وجودها، فتُبْدَل بتلك الجملة؛ نحو:

---

(١) سورة الطور ٣٨.

(٢) سورة المزمل ١٨.

(٣) سورة المؤمنون ٦٧.

(٤) سورة البقرة ٢٠٦.

(٥) سورة الفرقان ٥٩.

(٦) سورة النساء ٢.

(٧) سورة المائدة ٦.

(٨) سورة الدهر ٦.

(٩) سورة الأنعام ٩١.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾[1] أي: إن تخالطوهم فلا بأس بذلك، لأنهم إخوانكم؛ وشأن الأخ أن يخالط أخاه.

وقوله تعالى: ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾[2] أي لوجدوا ثواباً؛ ومثوبة من عند الله خير.

وقوله تعالى: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾[3] أي: إن سرق فلا عجب؛ لأنّه قد سرق أخ له من قبل.

وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[4] أي: من كان عدوًّا لجبريل فإنّ الله عدوّ له، فإنّه نزّله على قلبك بإذنه؛ فعدوّه يستحقّ أن يعاديه الله تعالى؛ فحذف: «فإنّ الله عدوّ له» بدليل الآية التالية، وأبدل منه: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾.

إبدال التنكير بالتعريف:

وقد يقتضي أصل الكلام التنكير، فيتصرّف فيه بإدخال اللام والإضافة، ويبقى المعنى على التنكير الأول، نحو:

قوله تعالى: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ﴾[5] أي: قيلٍ له: يا رب، فأبدل بقيله؛ لأنّه أخصر في اللّفظ.

---

(١) سورة البقرة ٢٢٠.

(٢) سورة البقرة ١٠٣ وتمامها: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ﴾ الآية.

(٣) سورة يوسف ٧٧.

(٤) سورة البقرة ٩٧.

(٥) سورة الزخرف ٨٨ بالجر معطوف على الساعة، أي: عنده تعالى علم الساعة، وعلم قول الرسول عليه السلام: يا رب! إنّ هؤلاء قوم لا يؤمنون. والقول والقيل والقال والمقالة، كلّها مصادر بمعنى واحد (جمل).

وقوله تعالى: ﴿حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾[1] أي: حقٌّ يقينٌ؛ أضيف ليكون أيسر في اللّفظ.

إبدال التذكير والتأنيث والإفراد بأضدادها:

وقد يقتضي سنن الكلام الطبيعي تذكير الضمير، أو تأنيثه، أو إفراده، فيخرجه سبحانه وتعالى عن ذلك السّنن الطبيعي، ويذكر المؤنّث مقام المذكّر، وبالعكس، ويأتي بالجمع مكان المفرد، رعاية للمعنى، نحو:

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾[4].

إبدال التثنية بالمفرد:

وقد يورد المفرد مكان التثنية، نحو:

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾[5].

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾[6] والأصل: «فعُمّيَتا» فأفرد، لأنهما كشيء واحد؛ ومثله: الله ورسوله أعلم[7].

---

(١) سورة الواقعة ٩٥ وفيه إضافة الموصوف إلى صفته، أي: حقّ الخبر اليقين.

(٢) سورة الأنعام ٧٨ وهذا مثال لذكر المذكر مقام المؤنث.

(٣) سورة المؤمنون ٢٨، وهذا مثال لذكر الجمع مكان المفرد.

(٤) سورة البقرة ١٧ أفرد الضمير في «استوقد» مراعاة للفظ الموصول، وجمع في قوله: «بنورهم» مراعاة لمعنى «الذي».

(٥) سورة التوبة ٧٤ أفرد الضمير لأنّ الفضل هنا بمعنى الرّزق، وهو لايكون إلا من الله تعالى.

(٦) سورة هود ٢٨.

(٧) والأصل: أعلمان؛ وأفرد لأنّ علم الرسول ﷺ هو ما علمه الله تعالى إيّاه، فهما كشيء واحد.

إبدال الشرط والجزاء وجواب القسم بجملة مستقلّة

وقد تقتضي طبيعة الكلام أن يذكر الجزاء في صورة الجزاء، والشّرط في صورة الشّرط، وجواب القسم في صورة جواب القسم، فيتصرّف سبحانه وتعالى في الكلام، ويجعل ذلك الجزء من الكلام جملة مستقلّة مستأنفة، لتنتظم[1] بالمعنى، ويقيم شيئاً يدلّ عليه بوجه من الوجوه، نحو:

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ۝٤ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾[2] المعنى: البعث والحشر حقّ، يدل عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾[3] المعنى: المجازاة على الأعمال حقٌّ.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾[4] المعنى: الحساب والجزاء كائن.

إبدال الخطاب بالغيبة:

وقد يقلب الله تعالى أسلوب الكلام، بأن يقتضيَ الأسلوبُ الخطابَ فيأتي بالغائب، نحو قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾[5].

---

(١) انتظم الشيء: تألّف واتّسق.

(٢) سورة النازعات ١ ـ ٦.

(٣) سورة البروج ١ ـ ٤.

(٤) سورة الانشقاق ١ ـ ٦.

(٥) سورة يونس ٢٢ والأصل: «بكم».

إبدال الإخبار بالإنشاء وبالعكس:

وقد يذكر سبحانه وتعالى الإنشاء مكان الإخبار، والإخبار مكان الإنشاء، نحو:

قوله تعالى: ﴿فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾[1] أي: لتمشوا.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2] أي: إيمانكم يقتضي هذا.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[3] المعنى: على قياس حال ابن آدم كتبنا، أو: على مثال حال ابن آدم؛ فأبدل منه: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾؛ لأن القياس لا يكون إلا بملاحظة العلّة؛ فكأنّ القياس نوع من التعليل.

وقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ﴾[4] هو في الأصل بمعنى الاستفهام، من الرؤية، ولكن نقل هنا ليكون تنبيهاً على استماع الكلام الآتي بعده، كما يقال في العرف: ترى شيئاً؟ تسمع شيئاً؟

التقديم والتّأخير والتّعلق بالبعيد وما شابههما

وقد يوجب التّقديم والتّأخير أيضاً صعوبةً في فهم المراد، كما في الشّعر المشهور:

بُثَيْنَةَ شأنها سلبت فؤادي   بلا جرم أتيت به سلاما[5]

والتّعلق بالبعيد أيضاً ممّا يوجب الصّعوبة في الكلام، وكذلك ما يكون من هذا القبيل، نحو:

---

(١) سورة الملك ١٥ وامشوا: صيغة أمر، وتمشوا: فعل مضارع، فأبدل الإخبار بالإنشاء.

(٢) سورة البقرة ٩٣.

(٣) سورة المائدة ٣٢.

(٤) في غير موضع كما في أول سورة الماعون.

(٥) أي: سلبت بثينة فؤادي، بلا جرم أتيت به، شأنها سلاماً.

قوله تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٩ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾[1] أدخل الاستثناء على الاستثناء فصعب.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾[2] متّصل بقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾[3] أي: يدعو من ضرّه.

وقوله تعالى: ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ﴾[4] أي: لتنوء العصبة بها.

وقوله تعالى: ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾[5] أي: اغسلوا أرجلكم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾[6] أي: ولولا كلمة سبقت وأجل مسمّى لكان لزاماً.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ﴾[7] متّصل بقوله: ﴿فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ﴾[8] متّصل بقوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾[9] أي: يسألونك عنها كأنك حفيّ.

---

(١) سورة الحجر ٥٩و٦٠.

(٢) سورة التين ٧.

(٣) سورة الحج ١٣ واللام فيه زائدة.

(٤) سورة القصص ٢٦.

(٥) سورة المائدة ٦.

(٦) سورة طه ١٢٩ وهذا مثال التقديم والتأخير.

(٧) سورة الأنفال ٧٣.

(٨) سورة الممتحنة ٤.

(٩) سورة الأعراف ١٨٧ وفيه أيضاً تقديم وتأخير.

الزيادة في الكلام

والزيادة على السنن الطبيعي أيضاً على أقسام:

الزيادة بالصّفة:

قد تكون الزيادة في الكلام بالصّفة، نحو:

قوله تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾[2].

الزيادة بالإبدال:

وقد تكون بالإبدال، نحو قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ﴾[3].

الزيادة بالعطف التفسيريّ:

وقد تكون بالعطف التفسيريّ، نحو قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ﴾[4].

الزيادة بالتّكرار:

وقد تكون بالتّكرار، نحو:

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾[5] أصل الكلام: وما يتّبع الّذين يدعون من دون الله شركاء إلا الظّن.

---

(١) سورة الأنعام ٣٨.

(٢) سورة المعارج ١٩_٢١.

(٣) سورة الأعراف ٧٥.

(٤) سورة الأحقاف ١٥.

(٥) سورة يونس ٦٦.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾[3] أي: هي مواقيت للنّاس باعتبار أنّ الله تعالى شرع لهم التوقيت بها، وللحجّ باعتبار أنّ التوقيت بها حاصل للحجّ، ولو قيل: «هي مواقيت للنّاس في حجّهم» لكان أخْصر؛ ولكن أطنب.

وقوله تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾[4] أي: تنذر أمّ القرى يوم الجمع.

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾[5] أي: ترى الجبال جامدة؛ أدخل «الحسبان» لأنّ «الرؤية» تجيء لمعان، والمراد بها ها هنا معنى «الحسبان».

وقوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[6] أدخل

(١) سورة البقرة ٨٩.

(٢) سورة النساء ٩.

(٣) سورة البقرة ١٨٩.

(٤) سورة الشورى ٧.

(٥) سورة النمل ٨٨.

(٦) سورة البقرة ٢١٣.

﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ في تضاعيف الكلام المنتظم بعضه ببعض بياناً لضمير: «اختلفوا»، وإيذاناً بأنّ المراد من «الاختلاف» هاهنا: هو الاختلاف الواقع في أمّة الدّعوة بعد نزول الكتاب: بأن آمن بعض وكفر بعض.

زيادة حرف الجر:

وقد يزيد سبحانه وتعالى حرف الجرّ على الفاعل، أو المفعول به، ويجعله معمولاً للفعل بواسطة حرف الجر، لتأكيد الاتّصال، نحو:

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا﴾[1] تحمى هي.

وقوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾[2] أي: قفيناهم بعيسى ابن مريم.

واو الاتّصال:

وينبغي أن يعلم هنا نكتة، وهي أنّ «الواو» تستعمل في مواضع كثيرة لتوكيد الاتّصال، لا للعطف، نحو:

قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ـ إلى قوله تعالى ـ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[5].

---

(١) سورة التوبة ٣٥.
(٢) سورة المائدة ٤٦.
(٣) سورة الواقعة ١_٧.
(٤) سورة الزمر ٧٣.
(٥) سورة آل عمرآن ١٤١.

فاء الاتّصال:

وكذلك تزاد «الفاء» أيضاً، قال القسطلاني في شرح كتاب الحجّ، في باب المعتمر إذا طاف طواف العمرة ثم خرج، هل يجزيه من طواف الوداع؟: «ويجوز توسّط العاطف بين الصّفة والموصوف لتأكيد لصوقها بالموصوف، نحو: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾[1] قال سيبويه: هو مثل: «مررت بزيد وصاحبك»إذا أردت بصاحبك زيداً.

وقال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾[2] جملة واقعة صفة لقرية؛ والقياس أن لا تتوسّط الواو بينهما، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾[3]، وإنما توسّطت لتأكيد لصوق الصّفة بالموصوف، كما يقال في الحال: جاءني زيد عليه ثوب، وجاءني زيد وعليه ثوب (انتهى)[4].

انتشار الضمائر، وإرادة المعنيين من كلمة واحدة:

وربّما تكون الصّعوبة في فهم المراد لانتشار الضّمائر، وإرادة المعنيين من كلمة واحدة، نحو:

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾[5] يعني أنّ الشياطين ليصدّون النّاس عن السبيل، ويحسب النّاس أنّهم مهتدون.

---

(١) سورة الأنفال ٤٩.

(٢) سورة الحجر ٤.

(٣) سورة الشعراء ٢٠٨.

(٤) أي انتهى كلام الزمخشري، وبه انتهى النقل من القسطلاني (٣٢٩:٣).

(٥) سورة الزخرف ٣٧.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ [1] المراد به الشيطان في موضع واحد، وفي الموضع الآخر الملك.

وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ [2].

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [3] فالأول معناه: أيُّ إنفاق ينفقون؟ وأيّ نوع من الإنفاق ينفقون؟ وهو صادق بالسّؤال عن المصرف؛ لأن الإنفاق يصير باعتبار المصارف أنواعاً؛ والثاني معناه: أيّ مال ينفقون؟

ومن هذا القبيل [4] مجيء لفظ «جعل» و« شيء»ونحوهما لمعانٍ شتّى:

قد يجيء «جعل» بمعنى(خلق) كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [5].

وقد يكون بمعنى (اعتقد) كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ [6].

ويجيء «شيء» مكان الفاعل، والمفعول به، والمفعول المطلق وغيرها، نحو:

قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ [7] أي: من غير خالق.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ﴾ [8] أي عن شيء ممّا تتوقّف فيه من أمري.

وقد يريد بالأمر والنّبأ والخَطْب المُخْبَرَ عنه، نحو:

قوله تعالى: ﴿هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ﴾ [9] أي قصّة عجيبة.

---

(١) في سورة ق في موضعين في آية ٢٣و٢٧.

(٢) سورة البقرة ٢١٥.

(٣) سورة البقرة ٢١٩.

(٤) أي من قبيل إرادة المعنيين من كلمة واحدة.

(٥) سورة الأنعام ١.

(٦) سورة الأنعام ١٣٦.

(٧) سورة الطور ٣٥.

(٨) سورة الكهف ٧٠.

(٩) سورة ص ٦٧.

وكذلك: كلمتا الخير والشرّ وما في معناهما يختلف المراد منهما حسب اختلاف المواضع.

ومن هذا القبيل[1]: انتشار الآيات: قد يبادر إلى آية مقامها الأصليّ بعد إيراد القصّة، فيذكرها قبل تمام القصّة، ثم يعود إلى القصّة فيتمّها[2].

وقد تكون الآية: متقدّمة في النزول، متأخّرة في التلاوة، نحو قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾[3] مقدّمة في النزول، وقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾[4] متأخّرة؛ وفي التلاوة بالعكس.

وقد يدرج الجواب في تضاعيف أقوال الكفّار، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ـ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ـ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾[5].

وبالجملة: فهذه المباحث تحتاج إلى تفصيل كثير، وفيما ذكرناه كفاية؛ ومن قرأ القرآن الكريم من أهل السعادة، واستحضر هذه الأمور عند تلاوته؛ أدرك بأدنى تأمل غرض الكلام ومغزاه، ويقيس غير المذكور على المذكور، وينتقل من مثال إلى أمثلة أخرى.

* * *

---

(١) أي من قبيل انتشار الضمائر.

(٢) كما في سورة الحجر ٦٠.

(٣) سورة البقرة ١٤٣.

(٤) سورة البقرة ١٤٢.

(٥) سورة آل عمران ٧٣.

الفصل الخامس

في بيان الـمُحكَم، والمتشابه، والكناية، والتّعريض، والمجاز العقلي

١ـ المحكَم:

لِيُعْلَم أن المحكم هو ما لا يدرك العارف باللّغة من ذلك الكلام إلا معنىً واحداً؛ والمعتبر فهم العرب الأوّلين، لا فهم مدقّقي زماننا الّذين يشقّون الشعرة، فإنّ التدقيق الفارغ داء عضال يجعل المحكم متشابهاً، والمعلوم مجهولاً.

٢ـ المتشابه:

والمتشابه هو ما يحتمل معنيين:

لاحتمال رجوع الضّمير إلى المرجعين، كما قال رجل: «أما إنّ الأمير أمرني أن ألعن فلاناً، لعنه الله!».

أو لاشتراك الكلمة في معنيين، نحو قوله تعالى ﴿لَـٰمَسۡتُمُ﴾[1] في الجماع واللّمس باليد.

أو لاحتمال العطف على القريب والبعيد، نحو قوله تعالى ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ﴾[2] في قراءة الكسر.

---

(١) سورة النساء ٤٣ وسورة المائدة ٦.

(٢) سورة المائدة ٦ وأما في قراءة النصب فيتعين العطف على البعيد.

أو لاحتمال العطف والاستئناف، نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾[1].

٣. الكناية:

والكناية هي أن يثبت حكماً من الأحكام، ولا يقصد به ثبوت ذلك الأمر بعينه، بل يقصد أن ينتقل ذهن المخاطب إلى لازمه بلزوم عاديّ أو عقلي، كما يفهم معنى كثرة الضيافة من قولهم: «عظيم الرماد»، ويفهم معنى السخاوة من قوله تعالى: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾[2].

تصوير المعنى المراد بالصّورة المحسوسة:

وتصوير المعنى المراد بالصّورة المحسوسة من هذا القبيل[3]؛ وذلك باب واسع في أشعار العرب وخطبهم؛ والقرآن العظيم وسنّة نبيّنا ﷺ مشحون به، نحو:

قوله تعالى: ﴿وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ﴾[4]، شبه الشيطان برئيس قطّاع الطريق، حيث ينادي أصحابه، فيقول: «تعال من هذه الجهة»و «ادخل من تلك الجهة».

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا﴾[5]؛ وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا﴾[6] شبّه إعراضهم عن تدبّر الآيات بمن

---

(١) سورة آل عمران٧.

(٢) سورة المائدة ٦٤.

(٣) أي من قبيل الكناية.

(٤) سورة الإسراء ٦٤ .

(٥) سورة يس ٩.

(٦) سورة يس ٨.

غلّت يداه، أو بني حواليه سدّ من كلّ جهة فلم يستطع النّظر أصلاً.

وقوله تعالى: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِ﴾[1] يعني اجمع خاطرك، ودع الاضطراب وقلق البال.

ونظير ذلك[2] في العرف:

أنّه إذا أراد أحد أن يبيّن شجاعة رجل يشير بالسّيف أنّه يضرب إلى هذه الجهة، ويضرب إلى تلك الجهة، وليس مقصودُه إلا بيانَ غلبته أهلَ الآفاق بصفة الشجاعة، ولو لم يأخذ السيف بيده مرّة من الدّهر.

أو يقولون:فلان يقول: «لا أرى أحداً على وجه الأرض يبارزني»، أو يقولون: «فلان يفعل كذا وكذا»، ويشيرون بهيئة أهل المبارزة وقت مغالبة الخصم؛ ولو لم يصدر عنه هذا القول قطّ، ولم يفعل هذا الفعل أصلاً.

أو يقولون: «فلان خنقني ونزع اللّقمة من فمي»[3].

٤. التّعريض:

والتّعريض أن يذكر الله تعالى حكماً عامًّا أو منكّراً، ويكون الغرض منه الإيماء إلى حال رجل خاصّ، أو التنبيه على حال رجل معين، ويأتي في غضون[4] الكلام بعض خصوصيّات ذلك الرّجل الّذي يعرِّفُ المخاطَبَ عليه، فيغرق القارئ في الفكر في مثل هذا الموضع، ويحتاج إلى تلك القصّة؛ وكان النّبي ﷺ إذا أراد أن ينكّر على شخص يقول: «ما بال أقوام يفعلون كذا

---

(١) سورة القصص ٣٢.

(٢) أي نظير تصوير المعنى المراد بالصّورة المحسوسة.

(٣) هذه التعبيرات وأمثال هذه كلّها من قبيل تصوير المعنى المراد بالصّورة المحسوسة.

(٤) يقال: جاء في غضون كلامك كذا: في أثنائه وطيّاته.

وكذا». وكما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ الآية[1]، تعريض لقصّة زينب وزيد بن حارثة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾[2] تعريض بأبي بكر الصّديق رضي الله عنه.

ففي هذه الصّور ما إذا لم يطّلعوا على تلك القصّة لايدركون فحوى[3] الكلام.

المجاز العقلي:

والمجاز العقلي: هو أن يسند الفعل إلى غير فاعله، أو يجعل المفعول به ما ليس بمفعول به في الحقيقة، لعلاقة المشابهة بينهما، ويدّعي المتكلّم أنّه داخل في عداده، وفرد من أفراده

كما يقولون: «بنى الأمير القصر» مع أنّ البانيَ بعضُ البنّائين.

وكما يقولون: «أنبت الرّبيع البقل» مع أنّ المنبت هو الله سبحانه وتعالى في فصل الرّبيع، والله أعلم بالصّواب.

** ** **

---

(١) سورة الأحزاب ٣٦.

(٢) سورة النور ٢٢.

(٣) فحوى القول: مضمونه ومرماه الذي يتّجه إليه القائل، ج فحاوٍ وفحاوى.

الباب الثالث

في بيان لطائف نظم القرآن، وشرح أسلوبه البديع

الفصل الأوّل

في ترتيب القرآن الكريم، وأسلوب السّور فيه

لم يجعل القرآن مبوّباً مفصّلاً على منهج المتون، ليذكر كل مطلب منه في باب أو فصل، بل افترض القرآن الكريم كمجموعة المكتوبات، فكما يوجّه الملوك إلى رعاياهم حسب مقتضيات الأحوال فرماناً، وبعد زمان يكتبون فرماناً آخر، وهلمّ جرّاً حتى تجتمع فرامين كثيرة، فيدوّنها شخص ويجعلها مجموعاً مرتّباً، كذلك أنزل المَلِك على الإطلاق جلّ شأنه على نبيّه ﷺ لهداية عباده سورة بعد سورة حسب متطلّبات الظروف.

وقد كانت كلّ سورة في عهد النّبي ﷺ محفوظة مضبوطة على حدة، ثمّ دوّنت السور كلّها في مجلّد واحد بترتيب خاصّ في عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وسمّي هذا المجموع بالمصحف.

تقسيم السّور:

وقد كانت السّور مقسومة عند الصحابة رضي الله عنهم إلى أربعة أقسام:

القسم الأوّل: السّبع الطّوَال الّتي هي أطول السّور.

والقسم الثاني: المِئُون: وهي الّتي تشتمل كلّ واحدة منها على مئة آية، أو تزيد قليلاً.

والقسم الثالث: المثاني: وهي ما تقلّ آياتها عن المئة.

والقسم الرابع: المفصّل.

وقد أدخلت سورتان أو ثلاث هي من عداد المثاني في المئين، لمناسبة سياقها بسياق المئين؛ وهكذا جرى التّصرف في بعض الأقسام الأخرى أيضاً.

القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه:

وقد استنسخ عثمان رضي الله عنه عدّة نسخ من ذلك المصحف، وأرسلها إلى الآفاق، ليستفيد المسلمون منها، ولا يميلون إلى ترتيب آخر.

استهلال السّور واختتامها على أسلوب الفرامين:

ولما كانت بين أسلوب السّور وأسلوب فرامين المُلوك مناسبة تامّة، روعي في البداية والنّهاية طريق المكاتيب؛ فكما أنّهم يبتدؤون بعضها بحمد الله تعالى، وبعضها ببيان غرض الإملاء، وبعضها ببيان اسم المُرسِل والمرسَل إليه؛ وبعضها تكون رقعة وشقّة بغير عنوان، وبعضها تكون طويلة، وأخرى مختصرة، كذلك استهلّ الله تعالى بعض السّور بالحمد والتّسبيح، وبعضها ببيان غرض التنزيل، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1] وقال تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا﴾[2].

وهذا القسم من السّور يشبه بما يكتبون[3]: «هذا ما صالح عليه فلان وفلان» و«هذا ما أوصى به فلان» وقد كتب النّبي ﷺ في صلح الحديبية:

---

(١) سورة البقرة ٢.

(٢) سورة النور ١.

(٣) أي في استهلال الوثائق والمعاهدات.

«هذا ما قاضى عليه محمّد ﷺ»[1].

واستهلّ بعضها بذكر المرسِل والمرسَل إليه، كما قال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾[2] وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[3].

وهذا القسم يشبه بما يكتبون: «صدر الحكم من الباب العالي» أو يكتبون: «هذا إعلام من حضرة الخلافة إلى سكّان البلد الفلانيّ بأنّ... إلخ»؛ وقد كتب النبيّ ﷺ: «من محمّد رسول الله إلى هرقل عظيم الرّوم»[4].

واستهلّ بعضها على أسلوب الرّقاع والشّقق[5] بغير عنوان، كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾[6] وقال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾[7] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾[8].

منهج القصائد في مبتدأ بعض السّور:

ولما كانت فصاحة العرب تتجلّى في القصائد، وكان من عاداتهم القديمة

---

(١) البخاري ص٣٧٢.

(٢) سورة الجاثية٢.

(٣) سورة هود ١.

(٤) البخاري (١: ٥).

(٥) الرقاع جمع الرقعة: القطعة من الورق التي تكتب فيها، والشقق جمع الشّقّة: ما شقّ من ثوب أو ورق مستطيلاً.

(٦) سورة المنافقون ١.

(٧) سورة المجادلة ١.

(٨) سورة التحريم ١.

في مبدأ القصائد التشبيب[1] بذكر المواضع العجيبة والوقائع الهائلة، فاختار سبحانه وتعالى هذا الأسلوب في بعض السّور، كما قال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرًا﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوًا ۝١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرًا﴾[3]، وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾[4].

خواتم السّور على منهج الفرامين:

وكما أنّ الملوك يختمون فرامينهم بجوامع الكَلِم، ونوادر الوصايا، والتّأكيد البليغ بتمسّك الأوامر المذكورة، والتّهديد الشديد لكل من يخالفها، كذلك ختم الله تبارك وتعالى أواخر السّور بجوامع الكلم، ومنابع الحِكَم والتّأكيد البليغ، والتّهديد العظيم.

تخلل الكلام البليغ في أثناء السّور:

وقد يؤتى في أثناء السّور بالكلام البَليغ العظيم الفائدة البديع الأسلوب، الّذي يشتمل على نوع من الحمد والتّسبيح، أو على نوع من النّعم والامتنان، كما:

بدأ بيان التباين بين مرتبة الخالق والمخلوق بقوله: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[5]، ثمّ بيّن هذا الموضوع في خمس آيات بأبلغ وجه وأبدع أسلوب.

---

(١) شبّب قصيدته: حسّنها وزيّنها بذكر النساء، والعادة أن يكون التشبيب في مبدأ قصائد المدح، ثم سمّى ابتداء كل أمر تشبيباً، وإن لم يكن فيه ذكر الشباب والنساء.

(٢) سورة الصافات ١و٢.

(٣) سورة الذاريات ١و٢.

(٤) سورة التكوير ١و٢.

(٥) سورة النمل ٥٩.

وبدأ مخاصمة بني إسرائيل في أثناء سورة البقرة بقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ﴾[1]، ثمّ ختمها بنفس هذا الكلام؛ فابتداء المحاجّة بهذه الكلمة، وانتهاؤها بها يحتلّ[2] مكاناً عظيماً في البلاغة.

وبدأ المخاصمة مع أهل الكتاب في سورة آل عمران بقوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾[3] ليتّضح محل النزاع، ويدور الحوار على ذلك المدّعى، والله أعلم بحقيقة الحال.

* * *

---

(1) سورة البقرة ٤٧ و١٢٢.

(2) احتلّ مكاناً: حلّه ونزله.

(3) سورة آل عمران ١٩.

الفصل الثاني

في تقسيم السّور إلى الآيات، وأسلوبها الفريد

لقد جرت سنّة الله تعالى في أكثر السّور[1] بتقسيمها إلى الآيات، كما كانوا يقسمون القصائد إلى الأبيات.

الفرق بين الآيات والأبيات:

وغاية ما يقال في الفرق بينهما: أنّ كلاًّ منهما نشائد[2]، الّتي تُنْشَدُ لالتذاذ نفس المتكلّم والسّامع؛ إلا انّ الأبيات مقيّدة بالعروض والقوافي[3] الّتي دوّنها الخليل بن أحمد[4]، وتلقّاها منه الشعراء؛ وبناء الآيات على الوزن والقافية الإجماليين، يشبهان أمراً طبيعيًّا، لا على أفاعيل العروضيِّين وتفاعيلهم[5] وقوافيهم المعيّنة الّتي هي أمر صناعي واصطلاحيّ.

---

(١) ستقف على فائدة التقييد بالأكثر في آخر الفصل.

(٢) النشائد جمع النشيد والنشيدة: ما يرفع فيه الصوت مع التلحين، وأنشد الشعر: قرأه رافعاً به صوته.

(٣) العروض: ميزان الشعر الذي يظهر به المتزن من المختل. والقافية: آخر كلمة في البيت، أو هي: من آخر ساكن فيه إلى أول ساكن يليه مع المتحرك الذي قبل الساكن، فلو قلت مثلاً: «ما أطول الليل على من لم ينم!» كانت القافية «لم ينم».

(٤) هو الخليل بن أحمد الفراهيدي: من أئمة اللغة والأدب وواضع علم العروض، وهو أستاذ سيبويه، ولد سنة ١٠٠هـ وتوفي سنة١٧٠هـ.

(٥) الأفاعيل والتفاعيل: أمثلة الأجزاء التي يتألّف منها الشعر، وهي أربعة: فعولن، مفاعيلن، فاعلاتن، مفاعَلَتن، وبقية الأجزاء مأخوذة منها.

الأمر المشترك بين الآيات والأبيات:

وأما تنقيح الأمر المشترك بين الآيات والأبيات ـ ونعبّر عن ذلك الأمر العامّ بالنّشائد[1] ـ ثم ضبط تلك الأمور الّتي التزم بها في الآيات ـ وذلك بمنزلة الفصل ـ فكلّ ذلك يحتاج إلى تفصيل، والله ولي التّوفيق.

وتفصيل هذا الإجمال: أنّ الفطرة السّليمة تدرك بذوقها في القصائد الموزونة المقفّاة، والأراجيز الرائقة الجميلة، وأمثالها، حلاوةً وعذوبةً؛ وإذا تأمّل أحد في سبب إدراك تلك الحلاوة، وجد أنّ نفس المخاطب تتذوّق لذّة خاصّة في الكلام الّذي يوافق بعضه بعضاً، ويجعلها منتظرةً كلاماً آخر مثله، فإذا سمعت بعد ذلك البيت الآخر مع ذلك التّوافق والانسجام بين أجزائه، وتحقّق الأمر المنتظر، تضاعفت اللّذة عند ذلك؛ ولما كان البيتان مشتركين في قافية واحدة، ازدادت اللّذّة ثلاثة أضعافها؛ فالتّمتّع والالتذاذ بالأبيات بهذا السّر فطرة قديمة فُطِرَ النّاس عليها، وأصحاب الأمزجة السليمة من أهل الأقاليم المعتدلة متّفقون على ذلك.

ثمّ حدثت بعد ذلك مذاهب مختلفة ورسوم متباينة في توافق الأجزاء[2] في كلّ بيت من الأبيات، وكذا في شروط القوافي المشتركة بين الأبيات: فالعرب عندهم ضوابط وأصول بيّنها الخليل، والهنود يتبعون قانوناً تُحْكَم به سليقتهم اللّغوية وقريحتهم[3] الفطريّة، وهكذا اختار أهل كلّ عصر وضعاً من الأوضاع[4]، وسلكوا مسلكاً من المسالك.

---

(١) وهذا بمنزلة الجنس.

(٢) الأجزاء: أركان الوزن.

(٣) القريحة من الإنسان: طبيعته التي جبل عليها.

(٤) الوضع: هيئة الشيء التي يكون عليها.

التّوافق التّقريبي هو الأمر المشترك بين مختلف الكلام المنظوم:

وإذا أردنا أن ننتزع من بين هذه الرّسوم والمذاهب المختلفة أمراً جامعاً مشتركاً، وتأمّلنا السّر المنتشر الشامل فيها، وجدنا أنّه هو التّوافق التّقريبي، لا غير؛ لأنّ العرب يستعملون (مفاعيل)[1] و(مفتعلن) مكان (مستفعلن)، ويعتبرون (فعلاتن) بدل (فاعلاتن) وَفْقَ القاعدة، ويجعلون موافقة ضرب[2] بيت بضرب بيت آخر، وموافقة عروض بيت بعروض بيت آخر، أمراً مهمّا؛ ويجوّزون زحّافات[3] كثيرة في الحشو[4] بخلاف شعراء الفرْس، فإنّ الزّحافات عندهم مستهجنة[5].

وكذلك تستحسن العرب كون القافية في البيت «قبوراً» وفي البيت الآخر «منيراً» بخلاف شعراء العجم.

وهكذا يرى الشعراء العرب أن «حاصل» و«داخل» و«نازل» من قسم واحد، بخلاف الشعراء العجم.

وكذلك وقوع كلمة واحدة بين شطري البيت، بحيث يكون نصفها في الصّدر، والنّصف الآخر في العجز[6] صحيح عند العرب، لا عند العجم.

وفذلكة القول: أنّ الأمر الجامع المشترك بين الكلام المنظوم العربيّ والفارسيّ هو التّوافق التّقريبي، لا التّوافق التّحقيقيّ.

وقد وضع الهنود أوزان شعرهم على عدد الحروف بدون ملاحظة

---

(١) الإعراب حكائي.

(٢) الضرب: الجزء الأخير من المصراع الثاني من البيت، والعروض هنا هو الجزء الأخير من المصراع الأول من البيت.

(٣) الزّحاف: تغيير يلحق ثاني السبب الخفيف أو الثقيل.

(٤) الحشو: أركان البحر الواقعة بين الصدر والعروض، وبين الابتداء والضرب.

(٥) استهجنه: استقبحه.

(٦) الصدر: المصراع الأول من البيت، والعجز: المصراع الثاني منه.

الحركات والسّكنات، وهي أيضاً تمنح لذّة وحلاوة، وقد سمعنا بعض أهل البداوة يختارون في تغريداتهم[1] الّتي يتلذّذون بها، كلاماً متوافقاً بتوافق تقريبيّ، أو رديفاً[2] ـ تارة يكون كلمة واحدة، وأخرى يزيد عليها ـ وينشدونها مثل القصائد، ويتلذّذون بها؛ ولكل قوم أسلوب خاصّ في كلامهم المنظوم.

وهكذا وقع اتّفاق الأمم على الالتذاذ بألحانٍ ونغماتٍ، وتحقّق اختلافهم في قوانين تغريدهم، وأساليب تلحينهم[3].

وقد وضع اليونانيون عدداً من الأوزان، يسمّونها «المقامات»، واستنبطوا منها أصواتاً وشعباً، ودوّنوا لأنفسهم فنّاً مبسوطاً مفصّلاً.

وكذلك وضع الهنود ستّة نغمات، وفرّعوا منها نغيمات، وقد رأينا أهل البداوة منهم الّذين لا يعرفون هذين المصطلحين، تفطّنوا بحسب سليقتهم لتأليف الكلام وتلحينه، وتغنّوا به من دون أن يضبطوا له الكليات، ويحصروا له الجزئيات.

وإذا حكّمنا الحَدْس[4] بعد هذه الملاحظات، لم نجد الأمر المشترك سوى التّوافق التّقريبي؛ ولا غرض للعقل إلا بذلك المنتزع الإجمالي، ولا همّ له في تفاصيل القوافي المردفة الموصولة[5]؛ ولا يحبّ الذوق السليم إلا تلك الحلاوة المحْضة والعذوبة الخالصة، ولا علاقة له بطويل البحر ومديده.

---

(١) غرّد الطائر والإنسان: رفع صوته بالغناء وطرّب به.

(٢) والرديف عند العجم: كلمة مستقلة تأتي في آخر البيت بعد القافية.

(٣) لحّن في قراءته: طرّب فيها، وغرّد بألحان.

(٤) الحدس: سرعة الانتقال في الفهم والاستنتاج.

(٥) الرّويّ: الحرف الذي تبنى عليه القصيدة، وإليه تنسب، يقال: قصيدة بائيّة: إذا كان رويّها الباء؛ ثمّ الرويّ إن كان ساكناً فمقيّد، والقافية مقيّدة؛ وإلا فمطلق والقافية مطلقة؛ فإن سبقه مدّة أو لين فردْف، والقافية مردفة؛ وإن لحقه مدّة أو هاء ساكنة بلا فصل فوصل، والقافية موصولة؛ فمثال القافية المردفة الموصولة: «ومن أين للوجه المليح ذنوبُ؟»: الردف واو في آخر الباء، والوصل واو قبل الباء وكذا: «وقلنا القوم إخوانُ» الردف واو، والوصل ألف (محيط الدائرة).

مراعاة القرآن الكريم للحسن الإجمالي المشترك:

ولمّا أراد الخلاّق ـ جلّت قدرته ـ أن يخاطب الإنسان المخلوق من قبضة طين، نظر إلى ذلك الحسن الإجمالي والجمال المشترك فحسب، ولم ينظر إلى قوالب مستحسنة عند قوم دون قوم؛ وحينما شاء مالك الملك أن يتكلّم على منهج الآدميّين، لاحظ ذلك الأصل البسيط والسّر المشترك، ولم يراع هذه القوانين المتغيّرة بتغيّر الأدوار والأطوار.

ومبنى التّمسك بالقوانين الاصطلاحيّة هو العجز والجهل؛ وتحصيل ذلك الحسن الإجمالي والجمال الفنّي بدون توسّط تلك القواعد ـ بحيث لا يتغيّر البيان في الوِهَاد والأنجاد[1]، ولا يضيع الكلام في السّهول والجبال ـ معجِزٌ ومفحم[2]، وأنا أنتزع من جريان الحقّ تعالى على ذلك السّنن أصلاً، وأضع منه قاعدة.

وتلك القاعدة: أنّه تعالى قد راعى في أكثر السّور امتداد النّفس[3]، لا البحر الطويل والمديد؛ وكذلك اعتبر في الفواصل انقطاع النّفس بالمدّة، وبما تستقرّ عليه المدّة، لا قواعد فنّ القافية.

وهذه الكلمة أيضاً تقتضي بسطاً وتفصيلاً، فَلْيُلْق القارئ السّمع لما يذكر بالتّالي:

---

(١) الوهاد: الأرض المنخفضة، والأنجاد جمع نجد: المكان المرتفع.

(٢) أي أنّ الاحتياج إلى القوانين العرفيّة لعجز الإنسان وجهله، فإنّه لا يقدر على تحصيل ذلك الحسن الإجمالي بكماله بدون توسّط تلك القواعد الفنية؛ ولكنّ الله تعالى قادر على كل شيء، فلا حاجة له إلى تلك القوانين الاصطلاحيّة لتحصيل ذلك الجمال المشترك بين كلام طوائف الناس.

(٣) النفس ـ بفتح الفاء ـ ريح يدخل ويخرج من فم الحيّ حالة التنفس، والجمع أنفاس.

الامتداد النّفَسِيُّ الطبيعيّ هو الوزن في القرآن:

اعلم أنّ دخول النّفس في الحلقوم وخروجه منه أمر طبيعي في الإنسان، وإن كان تمديده وتقصيره من مقدوره، ولكنّه إذا ترك على سجيّته فلا بدّ له من امتداد محدود؛ والإنسان حينما يتنّفس يجد النّشاط، ثمّ يضمحلّ ذلك النّشاط تدريجيًّا، حتّى ينقطع كليًّا في آخر الأمر، ويضطرّ إلى أخذ النّفَس الجديد الطازج.

وهذا الامتداد أمر محدّد بحدّ مبهم، ومقدّر بمقدار مشترك، بحيث لا يضرّه نقصان كلمتين أو ثلاث، بل ولا نقصان قدر الثّلث والرّبع، وكذلك لا يخرجه عن الحدّ زيادة كلمتين أو ثلاث، بل ولا زيادة قدر الثّلث والرّبع؛ ويسع فيه اختلاف عدد الأوتاد والأسباب[1]، ويسامح فيه بتقدّم بعض الأركان على بعض[2].

فجُعِل هذا الامتداد النّفسي وزناً، وقسّم على ثلاثة أقسام:

١. طويل. ٢. ومتوسّط. ٣. وقصير.

أمّا **الطويل**: فنحو سورة النّساء.

وأمّا **المتوسّط**: فنحو سورة الأعراف والأنعام.

وأمّا **القصير**: فنحو سورة الشعراء والدّخان.

---

(١) الوتد: ثلاثة أحرف، ثانيها أو ثالثها ساكن؛ فإن سكن وسطها كما في «قول» فهو الوتد المفروق؛ وإن تحرّك وسطها، وسكن آخرها كما في «على» فهو الوتد المجموع، والسبب: حرفان، ثانيهما ساكن نحو «لم» ويسمّى سبباً خفيفاً؛ وإن كانا متحرّكين، فهو سبب ثقيل، نحو: «أر» في لم أر.

(٢) الأركان: أفاعيل العروضيين وتفاعيلهم.

خاتمة النفس على المدّة هي القافية في القرآن:

وخاتمة النّفس على المدّة المعتمدة على حرف، هي القافية المتّسعة الّتي يتلذّذ الطّبع من إعادتها مراراً؛ ولو كانت تلك المَدّةُ في موضع «ألفاً»، وفي موضع آخر «واواً» أو «ياء»، وسواء كان ذلك الحرف الأخير في موضع «باءً» وفي موضع آخر «ميماً» أو «قافاً»، فـ «يعلمون» و«مؤمنين» و«مستقيم» كلّها متوافقة؛ و«خروج» و«مريج» و«تحيد» و«تبار» و«فواق» و«عجاب» كلّها على قاعدة.

لحوق الألف في آخر الكلمة أيضاً قافية:

وكذلك لحوق الألف في آخر الكلمة قافية متّسعة، في إعادتها لذّة، ولو كان حرف الرّوي[1] مختلفاً، فيقول في موضع «كريماً»، وفي موضع آخر «حديثاً»، وفي موضع ثالث «بصيراً».

فإن التزم في هذه الصّورة موافقة الروي، كان من قبيل: «التزام ما لا يُلتزم» كما وقع في أوائل سورة مريم وسورة الفرقان.

توافق الآيات على حرف واحد وإعادة الجملة مفيدٌ لذّةً:

وكذلك توافق الآيات على حرف واحد، كحرف «الميم» في سورة القتال، و«النّون» في سورة الرحمن يفيد لذّةً وحلاوة.

وكذلك إعادة جملة بعد طائفة من الكلام مفيد لذّة، كما وقع في سورة الشعراء، وسورة القمر، وسورة الرحمن، وسورة المرسلات.

---

(١) الروي: كل حرف يقع آخر البيت، إلا ما استثني منه من التنوين أو بدل من التنوين، أو حرف إشباعي مجلوب لبيان الحركة، وما إلى ذلك.

اختلاف فواصل آخر السّورة من أوائلها:

وقد تبدّل فواصل آخر السّورة من أوائلها تنشيطاً للسّامع، وإشعاراً بلطافة الكلام، مثل: «إدًّا» و«هدًّا» في آخر سورة مريم؛ ومثل: «سلاماً» و«كراماً» في آخر سورة الفرقان؛ ومثل: «طين» و«ساجدين» و«منظرين» في آخر سورة ص، مع أنّ الفواصل في أوائل هذه السّور جاءت مختلفة عنها، كما لا يخفى، فجعل الوزن والقافية اللّذان مضى التّعبير عنهما[1] مهمًّا في أكثر السّور.

منهج القرآن في الفواصل:

إنْ كان اللّفظ في آخر الآية صالحاً للقافية فبها، وإلا وصل بجملة فيها بيان آلاء الله، أو تنبيه للمخاطب، كما يقول: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وقد يطنب في مثل هذه المواضع، مثل: ﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾[2] ويستعمل التقديم والتأخير تارة، والقلب والزيادة أخرى، مثل: ﴿إِلۡ يَاسِينَ﴾[3] في إلياس، ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾[4] في سيناء.

السّر في الآية الطويلة مع الآيات القصيرة، وبالعكس:

وليعلم هنا: أنّ انسجام[5] الكلام وسهولته على اللّسان ـ لكونه مثلاً سائراً أو لتكرّر ذكره في الآية ـ يجعل الكلام الطويل موزوناً مع الكلام القصير.

---

(١) أي بالتوافق التقريبي، والمدّة المعتمدة على حرف.

(٢) سورة الفرقان ٥٩.

(٣) سورة الصافات ١٣٠.

(٤) سورة التين ٢.

(٥) انسجم الكلام: انتظم.

وربّما يؤتى بالفِقَر الأُوَلِ أقصر من الفقر التالية، وهو يفيد عذوبة في الكلام، نحو قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾[1]؛ فكأنّ المتكلّم يضمر في نفسه في مثل هذا الكلام: أنّ الفقرة الأولى مع الثانية في كفّة[2] والفقرة الثالثة وحدها في كفّة.

الآية ذات القوائم الثّلاث:

وربمّا تكون الآية ذات قوائم ثلاثٍ، نحو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ ..﴾ الآية، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ ..﴾ الآية[3]، والعامّة يصِلون الأولى مع الثانية فيحسبونها طويلة.

الآية ذات الفاصلتين:

وقد يجيء سبحانه وتعالى بفاصلتين في آية واحدة[4]، كما يكون ذلك في البيت أيضاً، نحو:

كالزّهر في تَرَف، والبدر في شرف   والبحر في كرم، والدّهر في همم[5]

---

(١) سورة الحاقّة ٣٠ـ٣٢.

(٢) الكفّة من الميزان: ما يجعل فيه الموزون.

(٣) سورة آل عمران ١٠٥ـ١٠٧.

(٤) كقوله تعالى ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ الرحمن ١٧ وقوله تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ نوح ٢٥.

(٥) والشعر من القصيدة البردة في وصف النّبي ﷺ، والترف: النعومة، والمعنى: أنّه ﷺ مثل الزهر في اللطافة، والبدر في الشرف، والبحر في الكرم، والدهر في العزم على الشيء.

أطول آية مع الآيات القصار:

وقد يجيء بالآية الواحدة أطول من سائر الآيات[1]، والسرُّ فيه: أنّه لو وضع حسن الكلام الّذي نشأ من تقارب الوزن ووجدان الأمر المنتظر الّذي هو القافية، في كفّة، ووضع حسن الكلام الّذي نشأ من سهولة الأداء وموافقة طبع الكلام، وعدم لحوق التّغير فيه، في كفّة أخرى، ترجّح الفطرة السليمة جانب المعنى[2] فيهمل أحد الانتظارين، ويوفّي الحقّ في الانتظار الثاني.

لم يراع ذلك الوزن والقافية في بعض السّور:

وأمّا ما قلنا في فاتحة المبحث: أنّ سنّة الله تعالى قد جرَت في أكثر السّور على ذلك، فإنّما هو لأجل أنّ الله سبحانه وتعالى لم يراع في بعض السّور ذلك النّوع من الوزن والقافية، فجاءت طائفة من الكلام على منهج خطب الخطباء وأمثال الحكماء؛ ولعلّك قد سمعت مسامرة النّساء المروية عن سيّدتنا عائشة رضي الله عنها[3] وفهمت قوافيَها؛ ووقع الكلام في بعض السّور على منهج رسائل العرب بدون رعاية شيء، مثل محاورة النّاس؛ إلا أنّه يختم كلّ كلام بشيء يكون مبنيًّا على الاختتام.

والسرّ هنا: أنّ الأصل في لغة العرب هو الوقف في موضع ينتهي إليه النّفس، ويضمحلّ نشاط الكلام؛ والمستحسن في محلّ الوقف انتهاء النّفس على المدّة؛ ومن أجل هذا تشكّل الكلام في صورة الآيات، هذا ما فتح الله تعالى على العاجز في هذا الباب، والله أعلم.

---

(١) كما في سورة المدثر ٣١ فإنّها أطول مما قبلها.

(٢) يعني ترجّح حسن الكلام الذي نشأ من سهولة الأداء.. إلخ.

(٣) صحيح البخاري ص ٧٧٩.

وجه اختيار الأوزان والقوافي الجديدة:[1]

وإن سألوا: لماذا لم يختر سبحانه وتعالى ذلك الوزن والقافية اللّذين هما معتبران عند الشّعراء، وهما ألذّ من هذا؟

قلنا: كونهما ألذّ يختلف باختلاف الأقوام والأذهان؛ ولو سلمنا[2]: فإبداع أسلوب من الوزن والقافية على لسان رسول الله ﷺ - وهو أميّ - آية ظاهرة على نبوّته ﷺ.

ولو نزل القرآن على أوزان الأشعار وقوافيها لحسب الكفّار أنّه هو الشّعر المعروف المشهور عند العرب، ولم يجنوا من ذلك الحسبان فائدة، كما أنّ البلغاء من الشّعراء والكتّاب حين يحاولون إبراز مزيّتهم، ورجحانهم على أقرانهم على رؤوس الأشهاد يستنبطون صناعة جديدة، ويتحدَّوْن: «هل من رجل يقرض الشّعر مثلي، ويكتب الرّسالة نحوي؟!» ولو جرى هؤلاء على النّمط القديم لم تظهر براعتهم إلا على المحقّقين البارعين.

* * *

---

(١) غيّرت هذا البحث من موضعه إلى هنا لاتّساقه مع مباحث الفصل.

(٢) أي لو سلمنا أن أوزان الشعراء وقوافيهم ألذّ مطلقاً عند جميع طوائف الناس لقلنا: إبداع.. إلخ.

الفصل الثالث

في وجه التّكرار في العلوم الخمسة وعدم الترتيب في بيانها

١ـ إن سألوا : لماذا كُرِّرت مطالب العلوم الخمسة في القرآن العظيم؟ ولِمَ لم يكتف سبحانه وتعالى ببيانها في موضع واحد؟

قلنا: إنّ ما نريد إفادته للسّامع على قسمين:

الأول: أن يكون المقصود هناك مجرّد تعليم ما لا يعلم؛ فالمخاطب الّذي لا يدري حكماً من الأحكام، ولم يدركه عقله، إذا سمع هذا الكلام يصير ذلك المجهول عنده معلوماً.

والثاني: أن يكون المقصود استحضار صورة ذلك العلم في قوّته المدركة ليلتذّذ به لذّة تامّة، وتفنى القوى القلبيّة والإدراكية في ذلك العلم؛ ويغلب لون ذلك العلم القوى كلّها، حتّى تنصبغ به؛ كما نكرّر الشّعر الّذي علمنا معناه، فنجد كلّ مرّة لذة جديدة، ونحبّ التكرار لأجل هذه الفائدة.

والقرآن العظيم أراد إفادة القسمين المذكورين بالنّسبة إلى كلّ واحد من مباحث العلوم الخمسة، فأراد تعليم ما لا يعلم بالنّسبة إلى الجاهل، وأراد انصباغ النّفوس بتلك العلوم بتكرارها بالنّسبة إلى العالم؛ اللّهمَ إلا أكثر مباحث الأحكام، فإنّه لم يقع فيها هذا التكرار؛ لأنّ الإفادة الثانية غير مطلوبة فيها.

ولأجل ذلك أمرنا الله تعالى بتكرار التّلاوة والإكثار منها، ولم يكتف بمجرّد الفهم.

ولكن راعى سبحانه وتعالى مع التكرار هذا القدر من الفرق: أنّه اختار في أكثر الأحوال تكرار تلك المطالب بعبارة طريّة، وأسلوب جديد، ليكون

أوقع في النّفوس، وألذ في الأذهان، ولو كـرّر سـبحانه وتعـالى بلفـظ واحـد لكان كالوِرْد[1] الّـذي يكرّرونـه؛ وأمّـا في صـورة اخـتلاف التعـابير، وتنـوّع الأساليب فيخوض الذّهن، ويتعمّق الخاطر بأسره في تلك المطالب.

٢ـ وإن سألوا : لماذا نشرت هذه المطالب في القرآن العظيم، ولم يـراعَ الترتيب : فيذكر آلاء الله أوّلاً، ويستوفي حقّها، ثمّ يذكر أيام الله فيكملها، ثمّ يبدأ بالجدل مع الكفّار؟

قلنا: إنّ قدرة الله تبارك وتعالى وإن كانت محيطـة بجميـع الممكنـات، ولكنّ الحاكم في هذه الأبواب هو الحكمة.

والحكمة: هي موافقة المبعوث إليهم في اللّسان وأسلوب البيـان، وإلى هذا المعنى أشير في قوله تعالى: ﴿لَقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّۗ﴾[2].

ولم يكن لدى العرب إلى وقت نزول القرآن أيّ كتاب، لا من الكتب الإلهيّـة، ولا من مؤلّفات البشر؛ وإنّ الترتيب الذي اخترعه المصنفون اليوم لم يكن يعرفه العرب، وإن كنت في ريب من هذا، فتأمّل قصائد الشعراء المخضرمين[3] واقـرأ رسائل النّبي الكريم ﷺ، ومكاتيب عمر الفاروق رضي الله عنه، يتّضح لك هـذه الحقيقة؛ فلو جاء الكلام على غير ما كانوا يعهدونه من طرائق البيان، لوقعوا في الحيرة، ولوصل إلى سمعهم شيء لا يألفونه، ولشوّش عقولهم.

وأيضاً: لم يكن المقصود مجرّد إفادة ما لا يعلمونه، بـل المقصـود هـو الإفادة مع الاستحضار والتّكرار؛ ويتوفّر هذا المعنى في غـير المرتّـب بـأقوى وجه وأتَمّ صورة.

---

(١) الورد: الوظيفة، أي النصيب من القرآن أو الذكر، يقال: قرأت وِرْدي.

(٢) سورة فصّلت ٤٤.

(٣) المخضرم: الذي مضى شيء من عمره في الجاهلية وشيء في الإسـلام؛ وخصّـهم بالذكر ليعرف أسلوب العرب وقت نزول القرآن.

الفصل الرابع

في وجوه إعجاز القرآن الكريم

وإن سألوا: ما هو وجه الإعجاز في القرآن الكريم؟

قلنا: الّذي تحقّق عندنا هو أنّ وجوه الإعجاز في القرآن الكريم كثيرة:

١ـ منها: الأسلوب البديع ـ لأنّ العرب كانت لهم عدّة ميادين يركضون فيها جواد البلاغة، ويتسابقون فيها مع أقرانهم، ألا، وهي القصائد والخُطب والرسائل والمحاورات؛ ولم يكونوا يعرفون غير هذه الأصناف الأربعة، ولم يكن عندهم قدرة على إبداع أسلوب سواها؛ فإبداع أسلوب غير أساليبهم على لسان النّبيّ الأميّ ﷺ عين الإعجاز.

٢ـ ومنها: الإخبار عن القصص الماضية وأحكام الملل السّابقة، على وجه يصدّق الكتب السّابقة بدون تعلّم من أحد.

٣ـ ومنها: الإخبار بالأحوال الآتية؛ فكلمّا وُجد شيء منها على طبق ذلك الإخبار، ظهر إعجاز جديد.

٤ـ ومنها: الدّرجة العليا من البلاغة الّتي ليست من مقدور البشر، ونحن إذ جئنا بعد العرب الأوّلين، لا نستطيع أن نصل إلى كنهها؛ ولكنّ القدر الّذي نعلمه، هو أنّ استعمال الكلمات الجزلة[1] والتركيبات العذبة مع اللّطافة وعدم التّكلّف، كما نجد ذلك في القرآن العظيم، لا نجد مثله في أيّ قصيدة من قصائد المتقدّمين والمتأخّرين، وهذا أمر ذوقي يدركه ـ كما ينبغي ـ المَهَرة من الشّعراء، ولا يتذوّقه العامّة.

---

(١) الجزل من الكلام: القوي الفصيح الجامع.

وكذلك نعلم أنّ في أنواع التذكير الثلاثة، والجدل مع الكفّار تُكسى المطالب ـ في كل موضع حسب أسلوب السّورة ـ لباساً جديداً طريفاً، تقصر يد المتطاول عن ذيله.

وإنْ تعسّر إدراك ذلك على أحد فليتأمل في إيراد قصص الأنبياء في سورة الأعراف وهود والشعراء، ثم لينظر إليها في الصافّات، ثم ليقرأ هذه القصص نفسها في الذاريات، ليتجلّى له الفرق.

وكذلك الحال في ذكر تعذيب العصاة وتنعيم المطيعين، فقد يذكر ذلك في كلّ مقام بأسلوب جديد؛ وهكذا تخاصم أهل النّار بعضهم مع بعض، يتجلّى في كلّ مقام في صورة جديدة؛ والكلام في هذا يطول.

وكذلك نعلم أيضاً أنّ رعاية مقتضى الحال الّذي تفصيله في علم المعاني، واستعمال الاستعارات والكنايات، الّتي تكفّل ببيانها علم البيان، مع مراعاة حال المخاطَبين الأمّيين الّذين يجهلون هذه الصناعات، لا يتصوّر كلّ ذلك أحسن ممّا يوجد في القرآن العظيم، وذلك لأنّ المطلوب في القرآن الكريم أن تودع في المخاطبات المعروفة [1] الّتي يعرفها كلّ أحد من النّاس، نكتة رائقة مفهومة عند العامّة، مرضيّة عند الخاصّة؛ وهذا الأمر كالجمع بين الضّدين، ليس من مقدور البشر، والله على كلّ شيء قدير، ولله درّ الشاعر حيث يقول: [2]

يزيدك وجهه حسناً إذا ما زدْتَه نظرا

٥ـ ومنها: وجه لا يتيسّر فهمه لغير المتدبّرين في أسرار الشرائع؛ وذلك: أنّ العلوم الخمسة نفسها تدلّ على أنّ القرآن نازل من عند الله تعالى، لهداية

---

(١) الحوار العام.

(٢) قد ذكر المصنف هنا شعراً فارسيًّا.

بني آدم؛ كما أنّ عالم «الطّب» إذا نظر في «القانون»[1] ولاحظ تحقيقه وتدقيقه في بيان أسباب الأمراض وعلاماتها، ووصف الأدوية وخواصّها، لا يشكّ أنّ المؤلّف كامل في صناعة الطّب؛ كذلك إذا علم العالم بأسرار الشرائع الأشياءَ الّتي ينبغي تلقينها للنّاس لتهذيب نفوسهم، ثمّ يتأمّل في العلوم الخمسة، يعلم قطعاً: أنّ هذه الفنون قد وقعت موقعها، بحيث لا يتصوّر أحسن منه:

والشمس السّاطعة تدلّ بنفسها على نفسها، فإن كنت في حاجة إلى الدليل فلا تولّ وجهك عنها[2].

** ** **

(١) القانون في الطّب للشيخ الرئيس أبي علي حسين بن عبد الله المعروف بابن سينا، المتوفّى سنة ٤٢٨ هـ.

(٢) ليس هذا بشعر، إنّما هو ترجمة للشعر الفارسي.

الباب الرابع

في بيان مناهج التفسير

وتوضيح الاختلاف الواقع في تفاسير الصحابة والتّابعين

طوائف المفسّرين:

ليُعلم أنّ المفسّرين عدّة أصناف :

جماعة قصدوا رواية آثار مناسبة للآيات، سواء كان حديثاً مرفوعاً أو موقوفاً أو مقطوعاً[1]، أو خبراً إسرائيليًّا ـ وهذا طريق المحدّثين.

وفرقة قصدوا تأويل آيات الصّفات والأسماء؛ فما لم يوافق منها مذهب التنزيه[2] صرفوها عن الظّاهر، وردّوا على استدلال المخالفين ببعض الآيات ـ وهذا طريق المتكلّمين.

وقوم صرفوا عنايتهم إلى استنباط الأحكام الفقهيّة، وترجيح بعض المجتهدات على بعض، والجواب عن تمسّك المخالفين ـ وهذا طريق الفقهاء الأصوليّين.

وجمعٌ أوضحوا إعراب[3] القرآن ولغته، وأوردوا الشواهد من كلام العرب في كلّ باب موفورة تامّة ـ وهذا منهج النّحاة اللّغويين.

---

(١) الحديث المرفوع: ما رفع إلى النّبي ﷺ. والحديث الموقوف: ما انتهى إلى الصحابي. والحديث المقطوع: ما انتهى إلى التابعي.

(٢) مذهب التنزيه: هو مذهب أهل السنة والجماعة في مسألة الصفات المتشابهات.

(٣) قوله إعراب القرآن يعني نحو القرآن وصرفه.

وطائفة يذكرون نكات المعاني والبيان بياناً شافياً، ويتفاخرون في ذلك الباب ـ وهذا طريق الأدباء.

واهتمّ بعضهم برواية القراءات المأثورة عن شيوخهم، فلم يدعوا دقيقاً ولا جليلاً في هذا الباب إلا جاؤوا به ـ وهذه صفة القرّاء.

وبعضهم يطلقون اللّسان بنكات متعلّقة بعلم السّلوك أو علم الحقائق[١] بأدنى مناسبة ـ وهذا مشرب الصّوفيّة.

وبالجملة: فالمجال واسع، ويقصد كلّ منهم تفهيم معاني القرآن الكريم، وخاض في فنّ من الفنون، وتكلّم على قدر فصاحته وفهمه، واتّخذ مذهب أصحابه نصب عينيه؛ ولأجل ذلك اتّسع مجال التفسير اتّساعاً لا يحدّ قدْرُه، وصنّفت كتب كثيرة لا يحصرها عدد.

جوامع التفاسير:

وقصد جماعة منهم إلى جمْع ذلك كلّه في تفاسيرهم، فمنهم من تكلّم بالعربيّة، ومنهم من تكلّم بالفارسيّة، واختلفوا في الاختصار والإطناب، ووسّعوا أذيال العلم.

ما منّ الله به عليَّ في علم التفسير:

وقد حصل للفقير ـ بحمد الله تعالى وتوفيقه ـ مناسبة في كلّ فن من هذه الفنون، وأحطتّ بمعظم أصولها، وبجملة صالحة من فروعها، وفُزت بنوع من التحقيق والاستقلال في كلّ باب من أبوابها، بوجه يشبه الاجتهاد في المذهب[٢]

---

(١) علم السلوك: هو علم الإحسان، وعلم الحقائق كالغاية له.

(٢) الاجتهاد في المذهب: هو أن يكون الرجل مجتهداً مستقلاً في الفروع، لا في الأصول.

وألقى في خاطري من بحر الجود الإلهيّ فنّانِ أو ثلاثة من فنون التفسير، سوى الفنون المذكورة سالفاً، وإن سألتني عن الخبر الصّدق فأنا تلميذ القرآن العظيم بلا واسطة؛ كما أنّي أويسيٌّ[1] في الاستفادة من روح النّبيّ ﷺ، وكما أنّي مستفيد من الكعبة الحسناء[2] بدون واسطة، وكذلك متأثّر بالصلاة العظمى[3] بغير واسطة:

ولو أنّ لي في كلّ منبت شعرةٍ ... لساناً لما استوفيت واجب حمدهِ

وأرى من اللاّزم أن أكتب كلمات عديدة في هذه الرّسالة عن كلّ فنّ من هذه الفنون[4].

* * *

---

(١) نسبة إلى أويس بن عامر القرني، الزاهد التابعي، وحديث فضله في «صحيح مسلم» في كتاب فضائل الصحابة (١٦: ٩٤) كان أسلم في زمن النبيّ ﷺ وهو باليمن، وكان له أمّ، وكان بارًّا بها، فلم يسافر من اليمن للقاء النبيّ ﷺ، واستفاد من روحه ﷺ، فبلغ منازل السائرين، كذلك صاحبنا الإمام استفاد منه ﷺ بلا واسطة وبدون لقاء.

(٢) الكعبة الحسناء: والمسلمون يستفيدون منها بواسطة الصّلاة؛ والكمَلَةُ من الرجال يستفيدون منها بلا واسطة؛ والحسناء تأنيث الحَسَن.

(٣) الصلوات المفروضة والنافلة، وكذا الصّلوات الخمس كلها أفراد الصلاة المطلقة الكاملة، وهي الصلاة العظمى التي تتمثل في عالم المثال، فإنّ المعنويات لها أجسام هناك والمسلمون يتأثّرون بها بواسطة أفرادها، وأمّا الذين بلغوا أقصى مدارج السالكين فيتأثّرون بها بدون واسطة أيضاً، وإليه الإشارة في قوله ﷺ: «جعلت قرّة عيني في الصلاة»، ولكن مهما بلغ الرجل المنازل لا يستغني عن أفرادها، وإليه الإشارة في قوله ﷺ: «أرحنا بها يا بلال».

(٤) يعني من الفنون مناهج المفسّرين، ثم اعلم أن الإمام تحدّث في الفصل الأول عن تفسير المحدثين، وفي الفصل الثاني عن بقية الأصناف.

الفصل الأوّل

في بيان الآثار المرويّة في تفاسير أصحاب الحديث وما يتعلّق بها

قسمان من أسباب النزول:

ومن جملة الآثار المروية في كتب التفسير بيان سبب النّزول؛ وأسباب النّزول على قسمين:

الأوّل: أن تقع حادثة يمحّص بها إيمان المؤمنين ونفاق المنافقين، كما وقع ذلك في غزوتي أُحُد والأحزاب، فأنزل الله تعالى مدح أولئك وذمّ هؤلاء، ليكون فيصَلاً بين الفريقين؛ وتقع في أثناء ذكر الحادثة تعريضات كثيرة بخصوصيّاتها؛ فيجب أن تشرح الحادثة بكلام مختصر ليتّضح على القارئ سياق الكلام.

والثاني: أن يكون معنى الآية تامًّا بعموم صيغتها، من دون حاجة إلى معرفة القصّة الّتي هي سبب النّزول؛ لأن العبرة لعموم اللّفظ لا لخصوص السّبب؛ والقدماء من المفسّرين قد ذكروا تلك الحادثة بقصد استيعاب الآثار المناسبة للآية، أو بقصد بيان ما صدق عليه عموم الآية؛ وليس من الضروريّ ذكر هذا القسم.

معنى قولهم: «نزلت الآية في كذا»:

وقد تحقّق لدى الفقير: أنّ الصّحابة والتّابعين رضي الله عنهم كثيراً ما كانوا يقولون: «نزلت الآية في كذا» ويكون غرضهم تصوير ما صدقت عليه الآية، أو ذكر بعض الحوادث الّتي تشتملها الآية بعمومها، سواء تقدّمت

القصّة على نزول الآية أو تأخّرت عنه، إسرائيليّة كانت القصّة أو جاهليّة أو إسلاميّة؛ تنطبق على جميع قيود الآية أو بعضها، والله أعلم.

فعلم من هذا التحقيق: أنّ للاجتهاد في هذا القسم[1] مدخلاً، وللقصص المتعدّدة هناك مجالاً؛ فمن استحضر هذه النّكتة يستطيع أن يعالج اختلاف أسباب النّزول بأدنى تأمل.

أمور في التفسير لا طائل تحتها:

ومن جملة ذلك:[2] تفصيل قصّة وقع في نظم القرآن تعريض بأصلها، فيستقصي[3] المفسّرون تفاصيلها من أخبار بني إسرائيل، أو من كتب السّير فيذكرونها بجميع أجزائها.

وها هنا أيضاً تفصيل: إن كانت الآية تشتمل على تعريض بالقصّة، بحيث يتوقّف العارف باللّغة هناك، ويبحث عنها، فذكرها من وظيفة المفسّر؛ وما كان خارجا منها ـ مثل ذكر بقرة بني إسرائيل: أذكراً كانت أم أنثى؟ ومثل بيان كلب أصحاب الكهف: هل كان أبقع أم أحمر؟ فذكره ممّا لا يعنيه؛ وكانت الصّحابة رضي الله عنهم يكرهونه، ويعدّونه من قبيل تضييع الأوقات.

القدماء ربّما يفسّرون على سبيل الاحتمال:

وليُحفظ ها هنا أيضاً نكتتان:

الأولى: أن الأصل في هذا الباب[4] إيراد القصص المسموعة، كما رويت: من غير تصرف عقليّ فيها، وأمّا طائفة من قدماء المفسّرين فيضعون

---

(١) أي في الصورتين المذكورتين، وهما: تصوير ما صدقت الخ.

(٢) أي من الآثار المرويّة في كتب التفسير.

(٣) استقصى الأمر: بلغ أقصاه في البحث عنه.

(٤) أي في بيان القصص في تفسير الآيات.

ذلك التعريض نصب أعينهم، ويفرضون لـه محمـلاً مناسـباً، ويبيّنونـه علـى سبيل الاحتمال، فيشتبه الأمر على المتأخّرين. ولمّـا لم تكـن أسـاليب البيـان منقّحة في ذلك العصر، فربّما يشتبه التفسير على سبيل الاحتمال بالتفسير مـع الجزم، فيذكرون أحدهما مكان الآخر؛ وهذا أمر اجتهاديّ، وللنظـر العقلـي فيه مجال، وركض جياد القيل والقال هناك ممكن.

ومن حفظ هذه النّكتة فإنّه يستطيع أن يحكم حكماً فصـلاً في كـثير مـن مواضع الاختلاف بين المفسّـرين؛ ويمكـن أن يعلـم في كـثير مـن منـاظرات الصّحابة رضي الله عنهم: أنّها ليست آراءهم القطعيّة، بل هي بحوث علميّـة، يتداولها المجتهدون فيما بينهم.

وعلى هذا المحمل يحمل العبد الضـعيف قـول ابـن عبّـاس رضـي الله عنهما في تفسير قولـه تعـالى: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾[1]: «لا أجد في كتاب الله إلا المسح، لكنّهم أبـوا إلا الغسـل»[2]، فالّـذي يفهمـه الفقير: أنّه ليس هذا بذهاب منه إلى وجوب المسح، وليس فيـه جـزم بحمـل الآية على ركنيّة المسح؛ بل الّذي ثبت عند ابن عبّـاس رضـي الله عنـهما هـو الغسل؛ ولكنّه يقرّر هنا إشكالاً، ويبدي احتمالاً، لـيرى كيـف يطبّـق علمـاء عصره في هذا التعارض؟ وأيُّ مسلك يسلكونه؟ فـزعم الّـذي لم يطّلـع علـى حقيقة محاورات السّلف هذا قول ابن عبّاس رضي الله عنه، وعدّه مـذهبا لـه: حاشاه! ثمّ حاشاه!!

---

(١) سورة المائدة ٦.

(٢) والأثر في روح المعاني(٦/٧٧) ومعناه: أنّ ظاهر الكتاب يوجب المسح على قراءة الجرّ، ولكنّ الرسول ﷺ وأصحابه لم يفعلوا إلا الغسل؛ ففي كلامه هذا إشارة إلى أنّ قراءة الجرّ مؤولة متروكة الظاهر بعمل رسول الله ﷺ والصحابة رضي الله عنهم (روح المعاني) .

النقل عن بني إسرائيل دسيسة دخلت في ديننا:

النّكتة الثانيّة: هي أن النّقل عن بني إسرائيل دسيسة[1] دخلت في ديننا بعدما كانت قاعدة: «لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذّبوهم»[2] مقرّرة؛ فلزم لأجل ذلك أمران:

الأوّل: أن لا يُرتكب النّقل عن أهل الكتاب إذا وجد في سنّة نبيّنا ﷺ بيان لتعريض القرآن؛ مثلاً حينما وجد لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾[3] محمل في السّنة النّبوية ـ وهو قصّة ترك «إن شاء الله» والمؤاخذة عليه ـ فأي حاجة إلى ذكر قصّة صخر المارد؟!

والثاني: أن يتكلّم بقدر اقتضاء التعريض نظراً إلى قاعدة: «الضروريّ يتقدّر بقدر الضرورة»[4]، ليمكن تصديقه بشهادة القرآن، وليكفّ لسانه عن الزيادة عليه.

•

تفسير القرآن بالقرآن:

وها هنا نكتة لطيفة إلى الغاية، لا بدّ من معرفتها، وهي: أنّها قد تذكر في القرآن العظيم قصّة[5] في موضع بالإجمال، وفي موضع آخر بالتفصيل، كما قال تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[6] ثمّ قال بعد ذلك: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ

---

(١) الدسيسة: ما أكمن من المكر والعداوة.

(٢) رواه البخاري برقم ٤٢١٥، وفيه النهي عن تصديق أهل الكتاب فيما لا يعرف صدقه من قبل الكتاب والسنّة؛ وفي النقل عنهم، من غير ردّ عليهم؛ تصديق لهم فلا يجوز، ولكن الناس تساهلوا في هذا الباب.

(٣) سورة ص ٣٤.

(٤) القاعدة الحادية والعشرون في شرح القواعد الفقهيّة للشيخ الزّرْقا (ص١٣٣).

(٥) يعني مضموناً، لا قصّة معروفةً فقط.

(٦) سورة البقرة ٣٠.

﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾[1] فهذا القول الثاني هو القول الأوّل بنوع من التفصيل، فيمكن أن يعلم به تفسير ذلك الإجمال، ويركض من الإجمال إلى التفصيل.

ومثلاً: ذكر في سورة مريم قصّة سيّدنا عيسى عليه السّلام إجمالاً، فقال تعالى: ﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةً مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرًا مَّقۡضِيًّا﴾[2]، وذكرت في سورة آل عمران تفصيلاً، فقال تعالى ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [3] الآية، ففي هذه المقولة بشارة تفصيليّة، وتلك المقولة بشارة إجماليّة؛ فمن ثُمّ استنبط العبد الضّعيف أنّ معنى الآية: «ورسولاً إلى بني إسرائيل، مخبراً بأنّي قد جئتكم»، وهذا كلّه داخل في حيّز البشارة، ليس بمتعلّق بمحذوف، كما أشار إليه السيوطي، حيث قال[4]: «فلمّا بعثه الله تعالى إلى بني إسرائيل قال لهم: «إنّي رسول الله إليكم، بأنّي قد جئتكم» والله أعلم.

وجه اختلاف السّلف في شرح غريب القرآن، وكيف يخرج المفسّر من العهدة في ذلك؟

ومن جملة ذلك:[5] شرح الغريب؛ ومبناه على تتبّع لغة العرب، أو التفطّن[6] بسياق الآية وسباقها[7]، ومعرفة مناسبة اللّفظ بأجزاء الجملة الّتي

---

(١) سورة البقرة ٣٣.

(٢) سورة مريم ٢١.

(٣) سورة آل عمران ٤٩.

(٤) تفسير الجلالين ص٥١.

(٥) أي من الآثار المرويّة في كتب التفسير.

(٦) تفطّن به: أي تنبّه له.

(٧) السياق ـ بالياء التحتانيّة ـ هو القرينة اللاحقة، والسّباق ـ بالباء الموحدّة ـ هو القرينة السابقة.

وقع هو فيها؛ فها هنا أيضاً للعقل مدخل، وللاختلاف مجال؛ لأنّ الكلمة

وقع هو فيها؛ فها هنا أيضاً للعقل مدخل، وللاختلاف مجال؛ لأنّ الكلمة

الواحدة تأتي في لغة العرب لمعان شتّى، وتختلف العقول في تتبّع استعمالات العرب، والتّفطن بمناسبة السّابق واللاّحق؛ ولهذا اختلفت أقوال الصّحابة والتّابعين رضي الله عنهم في هذا الباب، وسلك كلّ منهم مسلكاً.

فلا بدّ للمفسر المنصف: أن يزن شرح الغريب مرّتين:

مرّة في استعمالات العرب حتّى يعرف: أيّ وجه من وجوهها أقوى وأرجح.

ومرّة أخرى في مناسبة السّابق واللّاحق، حتّى يعلم: أيّ الوجهين أولى وأقعد[1] بعد إحكام المقدّمات، وتتبع موارد الاستعمال، وتفحّص الآثار.

استنباطات العبد الضعيف في شرح الغريب:

وقد استنبط الفقير في هذا الباب استنباطات طازجة[2] لا يخفى لطافتها إلا على المتعسّف[3] غليظ الطّبع، مثلاً:

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾[4] حملته على معنى: «تكافؤ القتلى، ومشاركة بعضهم مع بعض في حكم واحد» لئلا يحتاج في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ إلى مؤونة النّسخ، ولا يضطر إلى توجيهات تضمحلّ بأدنى التفات.

وكذلك حملت قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾[5] على معنى:

(١) الأقعد والقعيد: الأقرب.

(٢) الطازج: الجديد الحديث معرّب تازه.

(٣) المتعسّف ضد المنصف، من تعسّف فلاناً: ظلمه.

(٤) سورة البقرة ١٧٨.

(٥) سورة البقرة ١٨٩.

«يسألونك عن الأشهر»أي أشهر الحج؛ فقال تعالى: ﴿هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾.

وهكذا قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾[1] أي: لأول جمع الجنود، لقوله تعالى: ﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ﴾[3]؛ وهذا أوفق بقصّة بني النّضير، وأقوى في بيان المنّة.

اختلاف المتقدّمين والمتأخّرين في معنى «النّسخ» ممّا أوجب الاختلاف في عدد الآيات المنسوخة:

ومن جملة ذلك: بيان النّاسخ والمنسوخ؛ وينبغي أن تعرف هنا نكتتان:

الأولى: أنّ الصحابة والتّابعين رضي الله عنهم كانوا يستعملون «النّسخ» بغير المعنى الاصطلاحيّ المعروف بين الأصوليين، ومعناهم قريب من المعنى اللّغوي الّذي هو «الإزالة».

فمعنى النّسخ عندهم: إزالة بعض أوصاف الآية المتقدّمة بالآية المتأخّرة، سواء كان ذلك ببيان انتهاء مدّة العمل بها، أو بصرف الكلام عن المعنى المتبادر إلى غير المتبادر، أو ببيان كون قيد من القيود مقحماً، أو بتخصيص عامّ، أو ببيان الفارق بين المنصوص وبين ما قيس عليه ظاهراً، أو ما أشبه ذلك.

وهذا باب واسع، وللعقل فيه مجال، وللاختلاف فيه مساغ، ولهذا أبلغوا الآيات المنسوخة إلى خمس مئة آية.

---

(١) سورة الحشر ٢.

(٢) سورة الشعراء ٣٦.

(٣) سورة النمل ١٧.

ربّما يجعل الإجماع علامة للنّسخ:

والثانية: أنّ الأصل في بيان النّسخ بالمعنى الاصطلاحي هو معرفة تاريخ النّزول؛ ولكنّهم ربّما يجعلون إجماع السّلف الصّالح، أو اتّفاق جمهور العلماء على شيء علامة للنّسخ، فيقولون به؛ وقد فعل ذلك كثير من الفقهاء؛ ويمكن أن يكون في مثل هذه المواضع، ما تصدق عليه الآية غير ما ينطبق عليه الإجماع.

وبالجملة: ففي الآثار الّتي تنبئ عن النّسخ غمر[1] عظيم، يصعب الوصول إلى غوره.

أمور أُخَرُ يذكرونها في التفاسير:

وللمحدّثين أشياء أخر خارجة عن هذه الأقسام، يوردونها أيضاً في تفاسيرهم، كمناظرة الصّحابة رضي الله عنهم في مسألة واستشهادهم بآية، أو تمثيلهم بآية من الآيات، أو تلاوة النّبي ﷺ آية من الآيات، أو رواية حديث يوافق الآية في أصل معناها، أو طريق التّلفّظ بالنّقل عن النّبيّ ﷺ أو الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

* * *

(١) الغمر: الماء الكثير ومعظم البحر، والجمع غمار وغمور.

الفصل الثاني

في بقيّة لطائف هذا الباب

الكلام حول استنباط الأحكام:

ومن جملة ذلك:[1] استنباط الأحكام ـ وهذا الباب واسع جدّا، وللعقل مجال فسيح في الاطّلاع على فحاوى الآيات، وإيماءاتها، واقتضاءاتها[2]؛ والاختلاف بحذافيره[3] حاصل فيه. وقد ألقى الله تعالى في روع الفقير حصر الاستنباطات في عشرة أقسام[4]، والترتيب فيما بينها. وتلك المقالة ميزان عظيم لوزن كثير من الأحكام المستنبطة[5].

---

(١) أي من جملة فنون التفسير ومناهجه.

(٢) الفحوى: أن يفهم الكلام حال المسكوت عنه بواسطة المعنى الحامل على الحكم، مثل «لا تقل لهما أفّ» يفهم منه حرمة الضرب بطريق أولى، والإيماء: أن يكون أداء المقصود بعبارات بإزاء الاعتبارات المناسبة، كالتقييد بالوصف والشرط يدلان على عدم الحكم عند عدمهما، والاقتضاء: أن يفهم الكلام حال المسكوت عنه بواسطة لزومه للمستعمل فيه عادة أو عقلاً أو شرعاً، كقوله: «بعت» يقتضي سبق الملك شرعاً.

(٣) بحذافيره أي بأسره، جمع الحِذْفار والحُذْفور: الجانب والناحية.

(٤) وهي: ١ـ ما صرّح فيه بثبوت الحكم للموضوع له عيناً، وسيق الكلام لأجله.
٢و٣و٤ـ ما عدم فيه أحد القيود الثلاثة. ٥ـ الفحوى.
٦ـ الاقتضاء. ٧ـ الإيماء. ٨ ـ الدرج في العموم.
٩ـ الاستدلال بالملازمة أو المنافاة. ١٠ـ القياس.

(٥) والمقالة في «حجة الله البالغة» (١ :٣٠٣).

التوجيه في تفسير القرآن الكريم:

ومن جملة ذلك: التوجيه ـ وهو فن كثير الشّعب، يستعمله الشّراح في شرح المتون، ويختبر به ذكاءهم، ويظهر به تفاوت درجاتهم.

وقد تكلّم الصّحابة رضي الله عنهم ـ وإن لم تكن أصول التوجيه منقّحة في عصرهم ـ في توجيه الآيات الكريمة، وأكثروا منه.

وحقيقة التوجيه: أنّه إذا وقعت صعوبة في فهم كلام مؤلّف، يقف الشّارح هناك، فيحلّ تلك الصعوبة.

ولما لم تكن أذهان قرّاء الكتاب في مرتبة واحدة، لم يكن «التوجيه» أيضاً في مرتبة واحدة؛ فالتوجيه بالنّسبة إلى المبتدئين غير التوجيه بالنّسبة إلى المنتهين؛ إذ ربّما يخطر ببال المنتهي صعوبة فهم، فيحتاج إلى حلّها، والمبتدئ غافل عنها، بل لا يقدر أن يحيط بها؛ وكثير من الكلام يستصعبه المبتدئ، ولا يحصل في ذهن المنتهي شيء من الصّعوبة هناك؛ فالّذي أحاط بجوانب العقول، يراعي حال جمهور القرّاء، ويتكلّم على قدر عقولهم.

فعمدة التوجيه:

في آيات الجدل: تحرير مذاهب الفرق الباطلة، وتنقيح وجوه الإلزام.

وفي آيات الأحكام: تصوير صورة المسألة، وبيان فوائد القيود، من الاحتراز أو غيره.

وفي آيات التّذكير بآلاء الله: تصوير تلك النّعم وبيان مواضعها الجزئيّة.

وفي آيات التذكير بأيام الله: بيان ترتّب بعض القصص على بعض، وإيفاء حقّ التعريض الّذي يرد في أثناء سرد القصّة.

وفي التذكير بالموت وما بعده: تصوير تلك الأمور، وتقرير تلك الحالات.

أنواع التوجيه:

ومن فنون التوجيه :

١ـ تقريب ما كان بعيداً عن الفهم، بسبب عدم الألفة به.

٢ـ ودفع التعارض بين الدليلين، أو التّعريضين، أو فيما بين المعقول والمنقول.

٣ـ والتفريق بين الملتبسين.

٤ـ والتطبيق بين المختلفين.

٥ـ وبيان صدق الوعد الّذي أشير إليه في الآية.

٦ـ وبيان كيفية عمل النّبي ﷺ بما أمر به في القرآن العظيم.

وبالجملة: فالتوجيه كثير في تفسير الصّحابة؛ ولا يقضى حقّه حتّى يبيّن المفسّر وجه الصعوبة مفصّلاً، ثمّ يتكلّم في حلّ الصعوبة بالتفصيل، ثم يزن تلك الأقوال وزناً عدلاً.

غلوّ المتكلّمين:

وأمّا غلوّ المتكلّمين في تأويل المتشابهات وبيان حقيقة الصّفات، فليس هذا من مذهبي، بل مذهبي مذهب مالك والثّوري وابن المبارك وسائر المتقدّمين؛ وهو: إمرار المتشابهات على ظواهرها، وترك الخوض في تأويلها.

الجدل في القرآن:

والنّزاع في الأحكام المستنبطة، وإحكام مذهب نفسه، وهدم مذهب الآخرين، والاحتيال لدفع الأدلّة القرآنيّة، كلّ ذلك ليس بصحيح عندي،

وأخشى أن يكون ذلك من قبيل «التّدارؤ بالقرآن»[1]، وإنّما اللازم أن يطلب مدلول الآيات، ويتّخذه مذهباً له، سواء ذهب إليه الموافق أو المخالف.

لغة القرآن:

وأمّا لغة القرآن فينبغي أخذها من استعمالات العرب الأوّلين، وأن يعتمد كليًّا على آثار الصّحابة والتّابعين رضي الله عنهم.

نحو القرآن:

وقد وقع في نحو القرآن خلل عجيب، وهو أن طائفة من المفسّرين اختاروا مذهب سيبويه، فيؤولون كلّ ما خالف مذهبه، وإن كان التأويل بعيداً؛ وهذا لا يصحّ عندي، بل ينبغي اتّباع الأقوى، والأوفق بالسّياق والسّباق، سواء كان مذهب سيبويه أو مذهب الفرّاء[2].

وقد قال عثمان بن عفّان رضي الله عنه في مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[3]: «ستقيمها العرب بألسنتها»؛ وتحقيق هذه الكلمة عندي: أنّ مخالفة التعبيرات المشهورة أيضاً تعبير صحيح؛ وكثيراً ما يتّفق للعرب الأوّلين: أن يجري على ألسنتهم في أثناء الخطب والمحاورات ما يخالف القاعدة المشهورة؛ ولمّا نزل القرآن الكريم بلغة العرب الأوّلين، فلا عجب: أن جاءت «الياء» في موضع «الواو» أحياناً، أو وقع المفرد مقام التثنية، أو ورد المؤنّث مقام المذكّر؛ فالمحقّق عندي: أن يفسر «والمقيمين الصّلاة» بمعنى المرفوع، والله أعلم.

---

(١) التدارؤ: التدافع، تدارؤاً: تدافعاً في الخصومة ونحوها؛ ويحرم التدارؤ بالقرآن بقول النّبي ﷺ: «إنّما هلك من كان قبلكم بهذا: ضربوا كتاب الله بعضه ببعض».

(٢) هو يحيى بن زياد أبو زكريا الكوفي، المعروف بالفرّاء، توفي سنة ٢٠٧ هـ.

(٣) سورة النساء ١٦٢.

علم المعاني والبيان:

وأمّا المعاني والبيان فهو[1] علم حادث بعد انقراض عصر الصّحابة والتّابعين رضي الله عنهم. فما كان منه مفهوماً في عرف جمهور العرب فهو على الرّأس والعين؛ وأمّا ما كان منه خفيًّا لا يدركه إلا المتعمّقون من أرباب الفنّ، فلا نسلم أنّه مطلوب في القرآن الكريم.

إشارات الصّوفيّة:

وأمّا إشارات الصوفيّة واعتباراتهم فإنّها ليست في حقيقة الأمر من علم التفسير؛ بل يحدث عند استماع القرآن الكريم أشياء في قلب السّالك، وتتولّد تلك الأشياء في قلبه بين النظم القرآنيّ، وبين الحالة الّتي يتّصف بها، أو بين المعرفة الّتي يملكها؛ كمثل رجل يسمع قصّة ليلى والمجنون، فيتذكّر عشيقته، ويستعيد الذّكريات الّتي كانت بينه وبينها.

فنّ الاعتبار:

وهنا[2] فائدة هامّة، ينبغي الاطّلاع عليها، وهي: أنّ النّبيّ ﷺ جعل «فن الاعتبار»[3] معتبراً، وسلك ذلك المنهج ليكون سنّةً لعلماء الأمّة، وفتحاً لباب العلوم الموهوبة لهم.

كما أنّ النّبي ﷺ تمثّل بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾[4] في مسألة القدر، وإن كان منطوق الآية: أنّ من عمل بهذه الأعمال نهديه إلى طريق

---

(١) أرجع ضمير المفرد، لأنهما كعلم واحد.

(٢) أي عند ذكر اعتبارات الصوفية.

(٣) الاعتبار: هو العبور والانتقال من الشيء إلى غيره؛ وهو أعمّ من القياس الشرعي.

(٤) سورة الليل ٥.

الجنّة والنعيم، ومن عمل بضدّها نفتح له طريق النّار والتّعذيب؛ ولكن يمكن أن يعلم بطريق «الاعتبار»: أنّ الله تعالى خلق كلّ أحد لحالة خاصّة، ويجري عليه تلك الحالة من حيث يدري أو لا يدري؛ فبهذا الاعتبار كان لهذه الآية الكريمة ارتباط بمسألة القدر.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾[1]، فالمعنى المنطوق لهذه الآية الكريمة: أنّ الله تعالى عرّف كلّ نفس بالبرّ والإثم؛ ولكن لما كانت بين خلق الصّورة العلمية للبرّ والإثم، وبين البرّ والإثم الموجودين بالإجمال وقت نفخ الرّوح مشابهة، يمكن الاستشهاد بهذه الآية في مسألة القدر أيضاً من طريق الاعتبار؛ والله أعلم.

* * *

(١) سورة الشمس ٧.

الفصل الثالث

في بيان غرائب[1] القرآن الكريم

ليعلم أنّ غرائب القرآن الكريم الّتي خصّصت في الأحاديث بمزيد من الاهتمام وببيان الفضل[2] أنواع:

١ـ فالغريبة في فنّ التذكير بآلاء الله: هي آية جامعة لجملة عظيمة من صفات الحقّ تعالى، مثل آية الكرسي، وآخر سورة الحشر، وأوّل سورة المؤمن.

٢ـ والغريبة في فنّ التذكير بأيام الله: هي آية يبيّن فيها قصة نادرة، أو قصّة معلومة بجميع تفاصيلها، أو قصّة جليلة الفوائد الّتي تكون محلاًّ للاعتبارات الكثيرة؛ ولهذا قال النّبي ﷺ في قصّة موسى والخضر[3] عليهما السّلام: «وددنا أنّ موسى كان صبر حتّى يقصّ الله علينا من خبرهما»[4].

٣ـ والغريبة في فنّ التذكير بالموت وما بعده: هي آية تكون جامعة لأحوال القيامة مثلاً، ولذا ورد في الحديث الشريف: «من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنّه رأيُ عين، فليقرأ ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾»[5].

---

(١) الغرائب جمع غريبة، تأنيث الغريب من غرب الكلام غرابة: خفي؛ والمراد هنا: الطريقة النادرة البديعة.

(٢) أي السّور والآيات التي ورد فيها فضل خاص ولها ميّزة خاصة.

(٣) الخضر ـ بفتح فكسر ـ الزرع الغضّ الأخضر. سمي العبد الصالح به؛ لأنّه قعد مرة في مكان يابس فاخضرت الأرض كما في رواية البخاري رقم الحديث ٣٤٠٢.

(٤) صحيح البخاري ص٦٨٧ كتاب التفسير في تفسير سورة الكهف.

(٥) سنن الترمذي (٢:١٦٨).

٤ـ والغريبة في فنّ الأحكام: هي آية تكون مشتملة على بيان الحدود، وتعيين الأوضاع الخاصّة، كمثل تعيين مئة جلدة في حدّ الزّنى، وتعيين ثلاث حيض أو ثلاثة أطهار لعدّة المطلّقة، وتعيين أنصباء المواريث.

٥ـ والغريبة في فنّ الجدل: هي آية يرد فيها سوق الجواب بنهج غريب، يقطع الشّبهة بأبلغ وجه، أو يبيّن فيها حال فريق من تلك الفرق بمثل واضح، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾[(١)]؛ وكذا يبيّن فيها شناعة عبادة الأصنام، والفرق بين مرتبة الخالق والمخلوق، والمالك والمملوك بأمثلة عجيبة، أو إحباط أعمال أهل الرياء والسمعة بأبلغ وجه.

٦ـ وغرائب القرآن ليست بمحصورة في الأبواب المذكورة؛ فأحياناً تكون غريبة من جهة بلاغة القرآن، وأناقة أسلوبه، مثل سورة الرحمن؛ ولهذا سميّت في الحديث بعروس القرآن[(٢)]؛ وأحياناً تكون غريبة من جهة تصوير صورة سعيد وشقيّ.

ظهرُ القرآن وبطنه:

لقد ورد في الحديث الشريف: «لكل آية منها ظهرٌ وبطن، ولكل حرف حدّ، ولكل حدّ مطلع»[(٣)]، فينبغي أن يعلم أن ظهر هذه العلوم الخمسة: هو مدلول الكلام ومنطوقه؛ والبطن.

في التذكير بآلاء الله: هو التّفكر في آلاء الله، ومراقبة الحقّ سبحانه وتعالى.

---

(١) سورة البقرة ١٧.

(٢) المشكاة ١٨٩ في فضائل القرآن.

(٣) رواه الطّبراني في الكبير والبغوي في شرح السنة، ورمز له السيوطي في «الجامع الصغير» بـ(ح) أي أنّه حديث حسن؛ وأوله: «أنزل القرآن على سبعة أحرف، لكل حرف منها.. إلخ وفي رواية: لكل آية منها.. إلخ.

وفي التذكير بأيام الله: هو معرفة مناط المدح والذّم، والثـواب والعقـاب، من تلك القصص، والاتّعاظ بها.

وفي التّذكير بالجنّة والنّار: هو ظهـور الخـوف والرّجـاء، وجعـل تلـك الأمور كانّها بمرأىً منه.

وفي آيات الأحكام: هو استنباط الأحكام الخفيّة بالفحاوى والإيماءات.

وفي محاجّة الفِرق الباطلة: هـو معرفـة أصـل تلـك القبـائح، وإلحـاق مثلها بها.

ومطلع الظّهر: هو معرفة لغة العرب والآثار المتعلّقة بعلم التفسير.

ومطلع البطن: هو لطف الذّهن واستقامة الفهم، مع نور الباطن وسكينة القلب والله أعلم.

* * *

الفصل الرابع

في بيان بعض العلوم الوهبيّة

من العلوم الوهبيّة في علم التفسير الّتي سبقت الإشارة إليها :

١ـ تأويل قصص الأنبياء عليهم السّلام؛ وللفقير في هذا الموضوع رسالة مسمّاة بتأويل الأحاديث[1] والمراد من التأويل: هو أن يكون لكل قصّة وقعت مبدأ من استعداد الرّسول واستعداد قومه بحسب تدبير الله الّذي أراده في ذلك الوقت؛ وكأنه أشار إلى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾.

٢ـ ومنها: تنقيح العلوم الخمسة الّتي هي منطوق القرآن العظيم؛ وقد مرّ تفصيلها في أوّل الرّسالة، فليرجع إليه.

٣ـ ومنها: ترجمة القرآن الكريم باللّغة الفارسية، بوجه قريب من النّص العربيّ في مقدار الكلمات، وفي التخصيص والتعميم، وغير ذلك؛ وسميتها بـ «فتح الرحمن في ترجمة القرآن» وقد تركت هذا الشّرط في بعض المواضع خوفاً من عدم فهم القارئ بدون تفصيل.

٤ـ ومنها: علم خواصّ القرآن الكريم؛ وقد تكلّم جماعة من المتقدّمين في خواصّ القرآن من وجهين: وجه كالدّعاء، ووجه كالسحر، أعوذ بالله منه. وقد فتح الله على الفقير باباً من خواص القرآن، ووضع في حجري جميع

---

(١) رسالة مطبوعة، قصد المصنّف فيها إثبات المعجزات والتدليل عليها للفلاسفة والعقلانيين؛ ولكن تأويلاته فيها لا يتّفق كليًّا مع ظواهر النصوص، فلينتبه له.

الأسماء الحسنى، والآيات العظمى، والأدعية المباركة مرّة واحدة، وقال: «هذا عطاؤنا للاستعمال»؛ ولكنّ كلّ آية واسم ودعاء مشروط بشروط، لا تضبطها قاعدة؛ بل قاعدتها: انتظار عالم الغيب؛ كما يكون في حالة الاستخارة، حتّى ينظر بأيّ آية أو اسم يشار إليه من عالم الغيب؛ فيقرأ[1] تلك الآية أو الاسم على طريقة مقرّرة عند أهل الفنّ.

وهذا ما قصدت إيراده في هذه الرّسالة، والحمد لله أوّلاً وآخراً، وظاهراً وباطناً[2].

** ** **

---

(١) قوله: فيقرأ أي للمريض أو لنفسه؛ فهذا من الرقى المسنونة.

(٢) والفصل الخامس الذي يبحث فيه عن الحروف المقطّعات خارج من الباب الرابع ـ كما يدل عليه هذا الاختتام، وكذا ليس بشامل في الدرس، فلذا حذفناه من الكتاب، إذ ليس فيه كبير فائدة.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. وصلى الله على النّبي الكريم، وآله وصحبه أجمعين.

والحمد لله رب العالمين

فهرس الموضوعات



